

قصة
الاسير الصغير

وتليها قصة

في فضل اكرام الوالدين

تعريب المعلم شاكر شقير

اللبناني

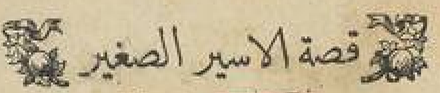
عضوٌ عامل في المجمع العلمي الشرقي

يربو الغلام على اخلاق مرشدهِ   لم يدرِ ألنفعَ يجني منهُ ام ضررا

حتى اذا شبَّ في اخلاقهِ ثبتت   فيهِ ولم يستطع تغييرها العمرا

فذي الحكايات مرآةٌ يرى عجلاً   فيها الذي فيهِ خيرٌ والذي حُذرا

طبع في بيروت بمطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٨٨٥



قصة الاسير الصغير



ابتداء المصاب

كان على مقربة من حرش كبير قصر قديم العهد جليل المنظر يسكنهُ امير من افاضل الامراء يقال لهُ صاعد وامرأتهُ عادلة التقية وكان لهما ولد وحيد يقال لهُ سليم صغير لطيف كملاك في صورة انسان يحبانهِ محبة ما فوقها محبة لانهُ رجاؤُهما في هذه الدنيا ووريث ابيهِ الجزيل الثروة الطيب الصيت

فاتفق حين كان الولد لم يعرف بعد ان يلفظ اسم ابيهِ ان دعي الامير الى بلاد بعيدة لاجل الحرب فما كان في وسعهِ ان يخالف امر الملك . فامتثالاً للاوامر العلية خرج من قصره وقلبهُ يتفطر على فراق زوجتهِ وولده . فبقيت الاميرة وحدها مع حاشية القصر لاتجد تسلية ولا تعزية الاَّ بوحيدها . فقصرت عنايتها على تربيتهِ

بخوف الله وغرس بذار الادب في قلبهِ . وأمّا لها تصوَّر لها السرور العظيم الذي ستذوقهُ حينما يأتي زوجها وتلقاه بهذا الولد الحبيب وقد كبر وتحلَّى بالظرف واللطف

ومضت على ذلك ايام عديدة وهي احياناً تلاعبهُ بنفسها وتبتهج ببشاشة وجههِ ولطف حركاتهِ وتارة تسلّمهُ الى عناية حاضنة مخصوصة بهِ لتناظر هي على اعمال الخدم وتتفقد احوال القصر

ففي احدى الليالي كانت قاعدة في سريرها وسليم على حضنها تلاعبهُ وترقصهُ وتغني لهُ اغاني روحية . والحاضنة واقفة امامهُ ايضاً تضحك لهُ وتعطيهِ ازهاراً لطيفة قطفتها من الروضة وهو يمدّ يديهِ ليتناولها ويضحك ويلعب وامهُ يرقص قلبها طرباً لمنظره الملائكي وحركاتهِ اللطيفة

وفي تلك الساعة اقبل رسول من الامير وهو كبير خدمهِ وكان قد صحبهُ الى الحرب وناول الاميرة رسالة من زوجها يقول فيها انهُ في احدى المعارك جرح جرحاً بليغاً يفضي بهِ الى الموت ويطلب اليها بإلحاح ان تبادر الى المسير اليهِ ليراها ويودّعها في آخر ساعة من حياتهِ

فلما وقفت المسكينة على هذا الخبر الهائل اسودَّت الدنيا في عينيها وتلاشت قواها وما عادت تملك رشداً ولا تقدر ان تنهض

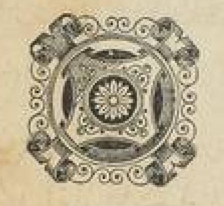
ولدها بيدها . فقال لها الخادم يامولاتي قوّي قلبك واتكلي على الله فسيدي قد يمكن ان يشفى لكن الخطر الآن جسيم فيجب على كل حال ان تسرعي بالارتحال اليهِ

فنهضت الاميرة من ساعتها ودبّرت جهاز سفرها . ثم ضمت ولدها الى صدرها وهي تذرف الدموع السخيَّة وصارت تقبلهُ وتشمهُ وتتنهد وتقول لهُ . آه يا ولدي الحبيب الحلو لاتقدر الآن ان تعرف مقدار احزان امك . يا اسفي عليك ستفقد اباك قبل ان تعرفهُ وانا الآن افارقك وقلبي يتفطّر لااعلم ما سيجري عليَّ وعليك ولا استطيع ان آخذك معي وانا اقاسي مشقات الطريق واشاهد احوال الحرب ونتائجها المريعة

ثم التفتت الى مولاتها امينة حاضنة سليم وقالت لها ياامينة انّي مسلّمة اليك هذ الولدا الوحيد الذي لاتدركين مقدار مكانتهِ في قلبي وقلب ابيهِ فهو امانة بين يديك فاحتفظي عليهِ جهدك واياك والتفريط في اموره . لاتتركيهِ دقيقة وحده ولا ينم الاَّ وانت فوق راسهِ وبالاختصار فتصرفي معهُ كما لو كنت انا حاضرة لديك وكل يوم صباحاً ومساء اذا وجدت الجوّ صافياً اخرجي بهِ الروضة والحديقة واقطفي لهُ الازهار والثمار ورتلي لهُ ترنيمات ادبية وروحية ولاتجعلي في يديهِ شيئاً يخدش بشرتهُ الناعمة . واحتملي بالصبر

والثاني هفواتهِ لانهُ ولد صغير لا يسهل ان نجعلهُ كما نحب في يوم واحد . وقد اوصيت القهرمانة رشيدة ان تساعدك ايضًا في ما كلّفتِ بهِ من هذا القبيل . فعديني ان لا تقصري بشيء مما اوصيتك بهِ لاكون مستريحة البال واذا رجعت ورايت ولدي كما اتمنى في عافية وسرور فاني اجزيك احسن جزاء

فوعدتها امينة بما ارادت وثاني يوم صباحًا ودعت الاميرة ابنها بالف قبلة ودموع حارّة وركبت كروستها ومضت تحت امطار تتدفق



الفصل الثاني

فقد سليم

كانت امينة المذكورة فتاة قروية يتيمة طاهرة القلب طيبة النفس وديعة انيسة. ولاجل هذه الصفات المحمودة احبتها الاميرة وجعلتها حاضنة لولدها فقامت بمصلحتها احسن قيام وكانت لا تكل ولا تمل من ملاطفة الولد وموانسته والمواظبة على خدمتهِ. وكانت تحب مولاتها الاميرة حباً شديداً لما رات من فضلها ورقة جانبها فعزمت ان تفعل كل ما اوصتها بهِ وزيادة لتكون مرضية لديها ويكون الامير راضياً عنها وعارفاً حقوقها

ففي ذات يوم كان سليم نائماً في سريره وامينة بجانبهِ تطرّز وقد جمعت من ازهار الحديقة الواناً وجعلتها في السرير حول الولد حتى اذا انتبه من النوم يبتهج برويتها وينتعش بذكاء رائحتها. فسمعت حينئذٍ جلَبة واصوات آلات طرب امام باب القصر فتراكض الخدم وفرحوا بهؤلاء الجماعة المطربين وادخلوهم قاعة في الطابق السفليّ وصاروا يتفرجون عليهم ويتلذذون باناشيدهم وتطريبهم

ورقصهم

وكانت امينة تحب جداً آلات الطرب لكن محافظة على اوامر سيدتها بقيت في مكانها حتى لا يبقى الولد وحده نائماً في سريره وما احبت ان توقظهُ وتاخذهُ على يدها ولو فاتها هذه اللذة الجديدة . وحينئذٍ دخل غرفتها الغلام البستاني جرجس وقال لها تعالي يا امينة واسمعي وانظري ما نحن فيهِ من السرور بهؤلاء المطربين . واحد معهُ دف مخشخش ينقرهُ نقراً في غاية الجودة . وواحد معهُ صنوج خفيفة رنانة . وآخر معهُ مزمار ينفخ فيهِ ويجيد اللحن ورابع معهُ بوق صيد صوتهُ هائل كخوار الثور . فانزلي معي حالاً لا تفوتك هذه الفكاهة . فقالت كيف انزل واترك ابن سيدي وحدهُ قال ما اقل عقلك قد تجاوزت الحدود فما عليهِ في اعالي قصرهِ ونحن كلنا عند الابواب فتعالي معي بجيانك وبعد ربع ساعة تعودين.

فمالت نفس امينة الى الطرب ميلاً شديداً غير ان قلبها بقي مضطرباً وفكرها قلقاً لمخالفة وصية سيدتها . وهمت مراراً ان تخرج من بينهم لكن ما سمح لها رفاقها الخدم واخيراً ضاق صدرها وقد طال الوقت فعادت الى غرفة سليم بعزم ثابت غير مبالية بالحاحات الخدم لبقائها معهم

فيا للعجب ويا للجزع لا يسهل وصف الاضطراب والخوف

والحيرة التي حلّت بهذه الفتاة الفاضلة حينما وقع نظرها على السرير فلم ترَ الولد فيهِ . ثم سكّنت روعها وقالت لعل بعض الخدم اراد ممازحتي فاخذ سليمًا من سريرهِ وخبأهُ عليها . لكن ما هذا المزاح القبيح اذا عرفت بهِ مولاتي فكم تلومني على اهمالي مصلحتي ومخالفة امرها

فاخذت تركض في القصر وتدخل كل غرفة وتجول هنا وهنا فلا تجد الفقيد فارتاعت وجزعت جزعًا شديدًا فنزلت حالاً الى القاعة وصاحت بالخدم قائلة ويلكم ابن سيدي ليس في سريرهِ من فعل هذا الفعل القبيح . فبُهِت الجميع من كلامها وخافوا ولم يكن احد منهم خرج من القاعة وما عرفوا كيف وقع هذا الامر . وفي الحال قطعوا الرقص وخرج المطربون منزعجين ولم يطلبوا أجرًا . وتفرق الخدم في كل منازل القصر يبحثون منذهلين فلم يقفوا لسليم على اثر كأنَّ طيرًا من السماء اختطفهُ . فصاروا ينوحون ويلطمون ويتحسرون ويتاسفون حتى كادت ارواحهم تزهق

واما امينة فلم تتصور في حياتها انها تذوق مثل هذا الويل ولو سقطت عليها الصاعقة واحرقتها لكان اهون عليها وفقدت صوابها وعزمت ان تهرب وتطرح نفسها في النهر فمنعها الخدم من هذا الجنون وقالوا اصبرا لعل مع العسر يسرًا . فقالت يا ويلي يا نكبتي

من كان يظن ان ترك الولد دقيقة ينتج منهُ هذا الهول العظيم وما يصيب مولاتي اذا اتت وكيف اخبرها هذا الخبر المريع

الفصل الثالث

تعاظم المصاب

كانت الاميرة منذ ايام كثيرة غائبة عند زوجها قبل حلول هذه المصيبة وكان الخدم جميعهم في غرفة سليم في الحالة المحزنة التي وصفناها . وامينة كالمختلَّة شاخصة في سرير الولد في اعظم حيرة لا تدري ما تفعل . فاذا بالباب انفتح ودخلت الاميرة فوقفوا حيارى . واما امينة فغُشي عليها

وسبب حضورها في هذا الوقت فجأة انها بعد ما وصلت الى مكان بعلها لم تجد الجرح قتالاً كما توهَّم الناس . وكان الاطباء قد بادروا الى تضميدهِ واحسنوا معالجتهِ وبالغوا في تلطيف آلامهِ وسرعة شفائهِ . واقامت الاميرة معتكفة ليلاً ونهاراً على الاهتمام بشان زوجها ومواساتهِ فاندمل الجرح في وقت قصير وشفي الامير

شفاءه أمن بهِ الخطر فاسرعت الاميرة الكرّة لشدة شوقها الى ولدها وصعدت راساً الى غرفتهِ لتشفي غليلها باعتناقهِ

فلما رأت ما رات من ذلك الموقف الهائل كلح وجهها وجمد الدم في عروقها وما ارادت ان تسأل عما جرى خوفاً من ان ينعوا اليها قرة عينها وحشاشة قلبها واخذت الوساوس تتجاذب افكارها واحتارت بامرها حيرة شديدة الى ان وقفت على الحقيقة بالدلائل التي ظهرت من الخدم فتلاشت قواها وسقطت لا تعي على شيء من الدنيا

وبعد ساعة استفاقت من غشيتها ضيقة الصدر حزينة النفس وقالت وهي تتلهف آه يا ربي يا الهي ما هذا المصاب العظيم. ولدي. ولدي العزيز. كيف فقد. اين هو قرة عيوني. بايّ لسان اخبر اباه هذا الخبر الفاجع. آه يا ويلي اذا وقع بايدي اللصوص فكيف ينشأ كيف تكون تربيتهُ. ايّ انقلاب تنقلب اطوارهُ. ايّ اخلاق تكون اخلاقهُ. ويلاه. ويلاه

ثم رجعت الى وقارها وجثت على ركبتيهـا ورفعت أيديها وعينيها الى السماء وقالت يا اله الرحمة والصلاح اعطنا نعمة الصبر لاحتمل انا وزوجي هذه البلية العظمى. خفف بنعمتك آلامنا. هكذا كانت مشيئتك فليكن اسمك مباركاً سمحت ان يقع فتاي

في ايدي الاشرار فلا تتخلَّ عنهُ وأفض عليهِ رحمتك واسكب على قلبهِ نعمتك حتى لا يخرج كواحد من الاشرار. عينك تراه اينما كان وقد احرمتني اياه واحرمتهُ عنايتي لكن عنايتك اعظم بما لا يقدر وكل ما تعملهُ فانما هو صلاح وخير لانقيائك

فبمثل هذه التاملات كانت هذه المراة الفاضلة تلطف مصيبتها وتسكن لوعتها. واما امينة فلم تكن تجد لنفسها تعزية فترامت على اقدام سيدتها وطلب المغفرة عن زلتها وقالت لها ياسيدتي تحكمي في دمي فما يقوم لي عذر امامك افعلي بي ما شئت واميتيني لاني كرهت الحياة. غير ان صلاح الاميرة ادى بها الى العفو عنها وقالت انا عالمة بشدة ندمك وانسحاق قلبك لكن هذا تدبير الله فما باليد حيلة. فاعتبري يا امينة الآن واعلمي ان كل ما اوصيتك بهِ كان مبنيًّا على التعقل. وقد ادَّبك الله لاجل مخالفة امري والتفاتك الى الملاهي التي طالما تجلب الويلات على متطلبيها. فاهمالك وصيتي برهة قصيرة اعقبت لنا حزنًا طويلًا وربما اوصلني الى شفير الفناء

ولما سكن روع الاميرة وهدأت افكارها امرت خدمها ان يتفرقوا في الانحاء ويسلكوا كل مسلك لعلهم يعثرون على اولئك الخاطفين الاشقياء. فمضوا وبحثوا واستقصوا ولم يدَعوا طريقًا

الا ساروا فيهِ ولا مسلكاً ضيقاً الا سلكوه ولا راوا احداً من ابناء السبيل الا سألوه فذهب كل عنائهم ضياعاً وعادوا كلهم بالخيبة

وكانت امينة قد وقفت ترصد رجوعهم وكلما رات واحداً منهم راجعاً يسكن اضطرابها قليلاً الى ان يدنو فتراه وعليهِ ملامح الكدر واليأس فتسكب دموعها ويتضاعف قلقهـــا حتى عاد الاخير كما عاد رفاقهُ فوقعت في وهدة اليأس وواظبت على النوح والبكاء حتى تقرحت اجفانها ونحل بدنها وصارت كالخيال ورق لها كل من كان يعرفها . وفي ذات يوم افتقدوها فما وجدوها

الفصل الرابع

مغاره اللصوص

كان في اطراف تلك البلاد بين الجبال المستوعرة كهف عظيم تحت الارض اصلهُ معدن حديد استُخرج حديدهُ وترك منذ دهر طويل فتهدَّمت جوانبهُ وتعطلت منافذه ولم يكن لهُ في الظاهر الا منفذ واحد حرِج جداً يدخل منهُ الانسان زحفاً وهو

مستور بين قطع الصخور والعوسج الملتف وله باب من حديد

وكان هذا الكهف مأوى لجماعة من اللصوص وفيهِ صناديق كثيرة مملوءة تحفاً جمعوها من السرقة والسلب والنهب بين حرائر نفيسة وثياب من صوف وقطن ثمينة وساعات ذهبية وفضية كبيرة القيمة وجواهر كثيرة ونحو ذلك من الحلى والحلل الفاخرة

ومن جملة اولئك الاشقياء عجوز نورية لا يقول من يراها الا انها صورة ابليس اللعين لكره منظرها وقبح سحنتها وشحوب وجهها وخبث طباعها وشناعة اعمالها ورداءة نفسها الشيطانية . ووظيفتها عندهم تدبير احوالهم بين طبخ وغسل ثياب وتدبير المنزل ونحو ذلك وكانت ايضاً تساعدهم في اعمالهم الشريرة بمكرها وحِيَلها . فكانوا هم تارة يخرجون بصفة مطربين ويدخلون المنازل لعلهم يغتنمون فرصة لاستلاب شيء واما هي فكانت تطوف في الشوارع والبيوت وتشعوذ للاولاد الصغار حتى اذا وجدت فرصة احتملت ولداً واخذته الى ذلك الوجار فينتفعون بهِ ببعض امور

ولذلك كانت قد دخلت القصر مرة بدعوى انها تبصر البخت وتشرح الطالع . عادة النَوَر في بلادنا . فتخللت مداخلهُ ومخارجهُ وعرفت احوالهُ حق المعرفة . فلما علمت ان الامير

والاميرة غائبان اتت باولئك اللصوص فالتهى بهم الخدم في القاعة وتسللت هي من باب صغير في الجنينة وصعدت سلماً سرّية كانت قد عرفتها ووصلت وهي تترقب الى غرفة سليم ودخلتها بعد خروج امينة . ولم يكن احد قد راها لا بين جماعة المطربين لانها لم تدخل معهم ولا في الجنينة لانها خلت من الناس وكان الغلام جرجس الطائش قد سها عن اغلاق الباب المذكور

فبخفة عجيبة وسرعة غريبة رفعت ابن الامير من سريره وجمعت ما وقع تحت يدها من نفائس المتاع وخرجت تنساب كالحية الرقطاء الى ان خرجت من باب الجنينة ودخلت الازقة الضيقة وتجاوزت البلد الى حرش بعيد فدخلت اجمة كثيفة واختبأت فيها الى ان خيم الظلام فقامت وتمشت بعجلة كل ذلك الليل الى ان وصلت صباحاً الى باب الكهف وكان مقفلاً من الداخل فاخرجت من جيبها مفتاحاً وفتحته ودخلت فوجدت جماعتها على المائدة ياكلون ويشربون ويلعبون فرحبوا بها وقال كبيرهم الآن صرنا في امان تام على انفسنا وقد صار ابن الامير بيدنا فاذا قُبض على واحد منا وارادوا اذيتنا نرسل الى الامير تهدداً اننا نقتل ابنهُ اذا لم يطلق اسيرنا وهكذا نبقى في راحة بال من هذا القبيل ولا يهتدي احد الى مكاننا هنا

وهكذا بقي سليم اسيرًا في تلك المغارة والمرأة تقوم بشانهِ وتلاطفهُ وتحسن معاملتهُ لاجل المقاصد الخبيثة المذكورة. فلما صار يعقل ويفهم نسي كل ايامهِ الماضية ولم يعد يخطر لهُ وجود شمس ولا قمر ولا نجوم ولا خضرة ولم يكن النور يدخل تلك المغارة حتى في رابعة النهار وكانت تنار بقنديل لا يطفأ ليلاً ولا نهارًا وهو معلق في السقف. وكان اللصوص ياتون دائمًا بالخبز واللحم والبقول والخمر ويعيشون ارغد عيش. وفي زاوية الكهف برميل كبير مملوء ماء وكانت المراة توصي سليمًا ان يسد الحنفية كلما شرب لانهم كانوا ياتون بالماء من مكان بعيد فيحرصون عليهِ

وفي كل المدة التي قضاها سليم بين اولئك الاشرار لم يطرق مسامعهُ ذكر الله ولا تعلم من القراءة حرفًا وانما كان كالبهيمة ياكل ويشرب وينام ويلاطَف. لكن كان من جملتهم فتىً طيب الاصل الَّا انهُ انقاد الى مصاحبتهم بطياشتهِ وميلهِ الشديد الى اللعب واللهو فكان يلتفت الى سليم التفاتًا خاصًا ويتحدث اليهِ وكل مدة ياتيهِ بطرفة يبتهج بها فاعطاه مرة صورًا منقوشة بالخشب نقشًا جميلاً وملونة وكانت صور قطيع من الغنم مع راعيها وكلبها والمرج التي تسرح فيهِ. واتحفهُ يومًا بصورة حديقة فيها الاشجار النضيرة والثمار الظريفة والازهار البديعة. وقدم لهُ ايضًا مرة بعد

اخرى مرآة صغيرة وألاعيب لطيفة وشبابة علمهُ النفخ بها. ثم باقة ازهار صناعية علمهُ ايضاً عمل مثلها بجمع قطع ملونة من الورق وضمها بسلك معدني. فكان سليم يجد دائماً ما يتسلى بهِ بالنظر والعمل

ومن جملة ما كان يراه فيفضلهُ على كل تحفة صورة امهِ وكانت النورية قد سرقتها من الغرفة في ذلك اليوم. وهي موضوعة في ذخيرة من ذهب مرصعة بالحجارة الكريمة فكانت تريهِ اياها حيناً بعد حين وتاخذها منهُ حالاً وهو لا يعرف انها صورة امهِ

وكان الفتى اللص المار ذكره قد اعلمهُ انها صورة امهِ وكان يسر برويتها فيتذكر امهُ وينقبض قلبهُ وتفيض عيناه بالدموع يقول في نفسهِ مسكين هذا الولد بايّ قساوة خُطف من بيت امهِ وكم قاست لفقدهِ من الآلام وسكبت من الدموع. يا ليتني اقدر ان اوصلهُ اليها فتفرح بهِ اشد الفرح لكني انا نفسي ويلاه حاولت الفرار تكراراً فمنعني رفاقي بجفاه وشددوا عليّ التهددات. وخوفاً منهم لا اجسر ان اذكر لهُ شيئاً عن الله

الفصل الخامس

النجاة من الكهف

لما ترعرع سليم وصار يدرك الامور وتحرَّكت بهِ افكار الفهم صارت نفسهُ تشتاق الى معرفة مايعمل اولئك اللصوص واين يمضون فيغيبون مدة ثم يرجعون فطلب اليهم مرارًا ان يخبروه شيئًا عن اعمالهم او ياخذوه معهم يومـًا فكانوا يعدونهُ الى يوم آخر ثم اذا الحَّ عليهم ينتهرونهُ . وكانوا احيانًا يخرجون كلهم وتبقى العجوز النورية وقد تقدمت في العمر وعجزت عن الحركة الكثيرة فكانت تقضي اوقاتها على كرسيها وهي بتلك السحنة الكريهة وترقع الثياب او تنام فكان سليم يجد مللاً عظيمًا من هذه الحال لايجد مكانًا يجول فيهِ ولا يسمح لهُ ان يفارق مكان العجوز فاتفق انها كانت يومًا غارقة في النوم وليس في الكهف احد غيره وغيرها . فاوقد شمعة وقام يمشي قاصدًا الجهة التي كان يرى الجماعة يخرجون منهـا حتى وصل امام باب الحديد فاذا هو مقفل لايقوى على فتحهِ . فحزن ورجع في طريقهِ ثم نظر حولهُ فراى عدة مسالك تتشعب من هذا

الدهليز الذي اتى فيهِ مستطيلة تخلل الصخور فتقدم في اول مسلك عرض لهُ ومشى مدة طويلة وهو يترصد منفذًا حتى ذابت الشمعة وانطفأت فرأى نفسهُ في ظلام مدلهمّ فارتاع ووقف جامدًا لا يقدم رجلًا ولا يؤخر. وبعد دقيقة صار يشرق امام عينيهِ في البعد ضوء خفيف جدًّا لم يرهُ اولًا لان نور الشمعة كان مانعًا لكن بشدة الظلام ظهر لعينيهِ المحدقتين بما امامهُ

فطرب اشد الطرب ورجا فرجًا قريبًا فاسرع الخطى نحو ذلك النور فكان يتعاظم كلما تقدم اليهِ حتى رآهُ اخيرًا ساطعًا كأنهُ يرى امامهُ جسمًا نيّرًا فقوِي قلبهُ وشدّد عزمهُ وتقدّم ايضًا فوجد شقًّا بين الصخور ينفذ الى الفضاء فطار قلبهُ من الفرح وخرج وهو لا يصدق بالنجاة من ذلك الكهف الخبيث

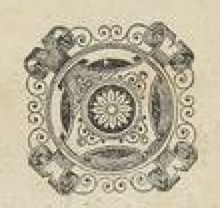
فصار ينظر حولهُ وفوق راسهِ وهو منذهل منبهر النظر كأنهُ مسحور لان منظر السماء الفسيحة كقبة زرقاء بعيدة المرام وامتداد الارض حولهُ الى امد بعيد وتلك الروابي والمروج النضرة البعيدة الاطراف كل ذلك اوقعهُ في ذهول عميق وكانت الشمس لم تطلع بعد فرأى السماء عند مكان شروقها كبحر متلاطم من اللهب ثم رأى اشعة الشمس الذهبية في قمم الجبال واعالي الاشجار وسمع تغريد الاطيار المختلفة الالوان والانواع ورأى اشكالًا غريبة من الخضرة

والازهار ووقع نظرهُ على بحيرة كبيرة في بطن الوادي المشرف عليهِ تتلألأ مياهها الصافية كالمرآة الصقيلة وتنعكس عنها صور الجبال والاشجار العجيبة لديهِ . فهذا ما قضى بحيرتهِ واندهالهِ الشديد . وبقي مدة لا يصدق انهُ يرى ما يرى كمن يستيقظ على اثر حلم طويل غامض التأويل ولم يعرف ما يقول اظهاراً لشعوره بهذه المناظر الغريبة

وحينئذٍ تعاظمت اشعة الشمس فوق الافق من خلال غيوم تراءت لهُ كانها بحر من نار يتاجج وخيل لهُ ان السماء احترقت او حدث حادث غريب في الكون . حتى اذا طلعت الشمس بابهتها وجلالها وتجلت لهُ في علوّ السماء ككرة كبيرة من النار زاد تحيرهُ واندهاشهُ ومدَّ يديهِ وصرخ قائلاً . آه ما هذا . ما هذا النور العظيم وانبهر بصرهُ من شدة نور الشمس فحوّلهُ وهو يكاد يختلّ من شدة تعجبهِ

فلما سكن بلبالهُ بعض السكون اخذ يمشي في ذلك المرج وهو يخشى ان يطأ الازهار المنثورة حولهُ لئلاَّ تتلف . ثم وقع نظره على خروف رابض في ظل عليقة فدنا منهُ طرباً برؤيتهِ واراد ان يقبض عليهِ فقام الخروف وفرَّ منهُ وصار يثغو . فنكص مرتعباً وقال يا للعجب ماذا ارى وماذا اسمع . خروف يمشي ويتكلم وانا قد

تركت في المغارة كثيراً من امثالهِ لا تتحرك ولا تبدي صوتاً . فمن علَّم هذا ان يمشي ويتكلم او من اعطاهُ هذه القوة . ثم صار يكلم الخروف فلا يجيبهُ الا بالثغاء فكاد يغضب عليهِ واذا بالراعي ظهر لهُ وكان شاباً لطيفاً يفتش على الخروف فخاف منهُ سليم اولاً حتى حياه الشاب ببشاشة وآنسهُ بطلاقة وجههِ فاطمأن وقال لهُ قل لي بحياتك هذه القبة الزرقاء الواسعة وهذه الارض الفسيحة لمن . ان كانت لك افتأذن لي ان ابقى هنا واتفرج على خروفك فاحتار الراعي بكلامهِ وظن انهُ مختل العقل ثم سالهُ من هو وما حالهُ فاخبره بخبرهِ . وللحال حملهُ على كتفهِ وحمل الخروف على الكتف الاخرى وسار مستعجلاً لئلاَّ يدهمهُ اللصوص



الفصل السادس

الناسك الصالح

كان في ذلك الجبل شيخ جليل ناسك قائم على التعبد وعمل الخير يحبهُ كل اهل تلك الناحية و يحترمونهُ اشد الاحترام . فخطر للشاب الراعي ان يوصل سليماً الى ذلك الناسك البارّ الفاضل وكان منزلهُ غير بعيد من هناك موقعهُ في سفح هضبة خضراء مشرفة على البحيرة المار ذكرها وحول كوخهِ اشجار غضة مثمرة تظلّلهُ وروضة قد جمعت انواع الازهار والرياحين والحشائش النافعة وورائها كرم فيهِ احسن الدوالي وبقربهِ حقل مزروع قمحاً

فلما وصل الراعي كان الناسك جالساً تحت شجرة تفاح يقرأ في كتاب كبير وقد جللهُ الشيب النقيّ فنهض للقاء الضيفين ببشاشة وانس واخبره الراعي خبر هذا الصبي فاخذه بين ذراعيهِ وسالهُ عن اسمهِ ولاح ببالهِ انهُ من عائلة شريفة وقد خطفتهُ اللصوص . فقال للفتى الراعي اترك لي هذا الولد ولا تخبر بخبرهِ

احدًا لعلي اجد عائلتهُ واللصوص لا يطرقون هذا المكان اذ ليس فيهِ ذهب ولا فضة ويسوءهم ان يسمعوا نصائحي ومواعظي

ثم قدم لهما خبزًا طريًا وحليبًا لذيذًا وبعد ذلك اراد الراعي الانصراف فتعلق بهِ سليم واراد ان يمضي معهُ فلاطفهُ ووعدهُ خيرًا وقدم لهُ الخروف هدية فسرَّ بهِ وسكن . فسالهُ الناسك هل تعرف شيئًا يا ولدي عن ابيك وامك . فقال نعم اعرف امي لطيفة جدًّا وها هي في جيبي (وذلك لانهُ كان قد اختلس الصورة على غفلة من العجوز) ثم اخرجها واراه اياها . وكان لم يرَها في ضوء النهار فانبهرت عيناه مما عليها من الجواهر ومن البلورة النقية التي فوق الصورة

ثم قال للناسك هنيئًا لك النور عندك عظيم جدًّا بخلاف ما هو في المغارة فاخبرني من اشعل هذا القنديل العظيم (واشار الى الشمس) المعلق في هذه القبة الكبيرة . وكيف لا يزال يصعد ساعة فساعة ولكن ما ارى حبلاً يتعلق بهِ فكيف يثبت من نفسهِ . ومن يصعد اليهِ ويضع فيهِ الزيت وباي واسطة وليس هنا سلَّم ولا شيء آخر يمكن التوصل بهِ اليهِ

فقال الناسك هذا القنديل الكبير العظيم النور يسمُّونهُ الشمس وهي دائمًا هكذا تطلع كما رايتها وتحلّق في الجوّ ثم تغيب وتعود

تطلع كل يوم وليست معلقة بشي بل هي سابحة في الجوّ ولا تحتاج الى زيت ولا يصعد اليها احد

قال هذا لا افهمهُ لكن اخبرني كيف تطلع هذه الازهار الجميلة ومن يصبغها بهذه الالوان اللطيفة ويهذّب الورق المشكل اشكالاً هل انت قطعتها على هذه الاشكال المتماثلة وكيف عملتها فانها ليست من ورق ولا نسيج بل هي احسن من الحرير وكم قضيت من الزمان لتصنعها فاني اعمل انا ازهاراً لكن لا تكون متقنة مثل هذه

قال لا يقدر انسان ان يعمل هذه الازهار العجيبة بل تنبت من الارض لذاتها من بزور صغيرة . ثم قطف زهرة ونثر ورقها وفتح علبة بزورها وقال كل واحدة من هذه البزور يخرج منها عدة ازهار . فتعجب الولد وما صدق كلامهُ وبقي مرتاباً حتى شرح لهُ الكيفية . ومن ثم اخذ يفسر لهُ كيفية نمو النباتات من بزور صغيرة بين ازهار واشجار وثمار . وسائر مظاهر الطبيعة التي قضى منها عجبًا . واخيراً كشف لهُ سرّ التدبير الالهي والقى في قلبهِ نوراً متلالئاً باخباره عن وجود الله وحكمتهِ وقدرتهِ وسائر ما يتعلق بتدبير الكون . ثم شرح لهُ فائدة الماء للنباتات وكمية وجودهِ على الارض وسائر منافعهِ واشار الى البحيرة قائلاً اترى هذه الفسحة

الصقيلة اللامعة في ذلك الوادي فهذا كلهُ ماء ويوجد فسحات اكبر منها بما لا يقدَّر يقولون لها بحار . ومياه غزيرة تخرج من بطون الجبال وتجري الى البحار يقال لها انهار وشرح كيفية وقوع المطر وتكاثف السحاب الى غير ذلك مما يتعلق بنظام الكون حتى بهت من كلامهِ واشرق عليهِ نور المعرفة وعرف مقدار عظمة الله وسمو حكمتهِ وكثرة رافتهِ بالناس . فامتلأ سليم سروراً و بهجة وفاضت عليهِ النعمة من علو السماء وانعشت قلبهُ واراحت افكارهُ وازالت اضطرابهُ واوهامهُ فرفع يديهِ مع الناسك الى السماء وسمع صلاة الناسك ثم قال هو بعده

وانا ايضاً اشكرك يا الله الكثير الصلاح والرحمة اشكرك لانك خلصتني من تلك المغارة المخيفة وارسلتني الى هذا المكان لاستنير بتعليم هذا الاب الفاضل الذي القى في قلبي نور معرفتك ومحبتك وعبادتك الطاهرة

الفصل السابع

اللقاء السعيد

واقام سليم عند الناسك كل ذلك الصيف وكان قصد الناسك بذلك تهذيب اخلاقهِ وتثقيف عقلهِ وغرس مبادئ الدين في قلبهِ وتقوية صحتهِ حتى دخل الخريف فصار غلامًا نضيرًا لطيفًا مكملاً بالدين والادب والعافية التامة

وكان الناسك قد طاف البلاد وعرف المدن المشهورة فعزم هذه المرة ان يجول في تلك الاقطار ليهتدي الى معرفة والدي سليم واراد ان يضع الولد عند والد الفتى الراعي الى ان يعود من تطوافهِ بعد الوقوف على ما قصد . وكان الرجل المذكور اي والد الراعي رجلاً صالحًا مملوءًا حكمة ومستقيم السيرة وكان مقامهُ وراء الجبل على مسافة ثلثة اميال من منزل الناسك

فنهض في صباح يوم ظريف واخذ سليمًا معهُ ومضى في سبيلهِ وفرح الولد فرحًا شديدًا بأمل روءيتهِ بلادًا جديدة . فسلكا مسالك ضيقة لا يعرفها الاَّ الرعاة والصيادون الى ان بلغا صخرًا شامخًا

كبيراً عنده قطيع من الماعز فاستراحا في ظل ذلك الصخر وتغدّيا عند الظهر. فتقدم ابن صاحب الماعز وكان ولداً من عمر سليم فابتهج سليم برؤيتهِ وقال ويْ رجل صغير نظيري ما كنت احسب انهُ يوجد رجل صغير غيري. افتريد يا اخي ان تصحبنا في سفرنا. فقبل الولد يد الناسك وطلب اليهِ ان يحمل الخرج الذي فيهِ الزاد ويمضي امامهما. فكان سليم في الطريق لا يملُّ من محادثة هذا الولد غير مكترث بشيء آخر

فوصلوا الى وادٍ صغير ورأوا هناك قطيعاً من الغنم يرعى وكان للرجل الذي عزم الناسك على ابقاء سليم عندهُ. فلما راى سليم الخرفان والحملان سرَّ بها جدًّا وصار يلاطفها ويدعوها باسماء لطيفة

وكان الناسك في اثناء المسير يراقب جهات الوادي ليرى الراعي فوقع نظرهُ على فتاة جالسة في سفح اكمة صغيرة تقرأ في كتاب لا تلتفت الى شيء وهي لابسة ثوباً ابيض وبرنيطة تظلل جبينها وعليها ملامح الوداعة واشتغال البال

فدنا منها الناسك وكانت لا تعرفهُ بل تسمع الناس يتحدثون بفضائلهِ وتقواه. فرفعت نظرها ورات عليهِ الهيبة والوقار فقامت وحيَّتهُ تحية الاحترام. فقال لها الست من مدة طويلة ترعين هذه

الاغنام لاني اعرف راعيها وما سمعتهُ يذكرك مرة . فقالت نعم كنت ارعى الغنم في هذه الجبال منذ عدة سنوات لكن دخلت في خدمة صاحب هذه الاغنام منذ ثلثة ايام . فقال لها من اين انت يا ولدي ولماذا تظهرين كئيبة

فجرت دموع الفتاة بسؤالهِ هذا وقالت وا اسفاه انا من مكان بعيد جدًّا من هنا واسقطني طيشي في ويل عظيم كنت اخدم جماعة من افضل الناس وسلموا اليَّ ولدهم طفلاً للقيام باموره فغضضت طرفي عنهُ برهة فقضى الله ان يدًا امدَّت اليهِ وسرقتهُ من سريره . واسفت اشد الاسف وندمت حيث لا ينفع الندم وما عدت اطيق البقاء في البيت وامهُ امامي تنوح الليل والنهار فهربت الى هذه الجبال وعشت في عزلة عن الناس اسال الله كل يوم ان ينظر اليَّ ويردَّ الولد على والدتهِ فيرجع لها سرورها الذي فقدتهُ بسببي ولي الرجاء برحمتهِ تعالى ان يستجيب طلباتي الحارة

فقال لها وقد تخشع ثني يا ابنتي قد سمع الله لصوت تضرعك. ثم اخذ من جيبهِ الصورة التي سلمها اليهِ سليم وقال اتعرفين صورة من هذه .فصاحت الفتاة مندهشة وقالت يا الهي لك الشكر والحمد هذه صورة مولاتي ام الفقيد

وكان سليم غير مبالٍ بحديثهما فلما سمع صراخها ارتكض

وقال لها ما سبب بكائك يا اختي اتحتاجين الى طعام فمعنا خبز كثير

فقال لها الناسك حققي النظر في هذا الولد لعلك تعرفين شيئًا من ملامحهِ . فهذا هو الذي سرقهُ اللصوص وسرقوا معهُ هذه الصورة

فلما علمت المسكينة الحقيقة ما عادت تملك نفسها من شدة فرحها وفاضت دموعها على وجنتيها وجثت على ركبتيها صارخة يا اله الرحمة والجود قد استجيبت صلاتي . واعتنقت الولد اعتناقًا شديدًا وبللت خديهِ بدموعها وقالت لهُ أأنت هو يا حبيبي نعم انت هو هوذا صورة ابيك منطبعة على وجهك يا السعادة امك بلقائك . هلمَّ يا سيدي الشيخ لنذهب في الحال ونبشرها هذه البشارة العظمى

فقال لها الناسك يباركك الرب ايتها الفتاة الصالحة لانهُ بك سهل طريقنا . ولا شك انهُ ينظر بعنايتهِ الى هذا الولد نظر الاب الرأوف وينظر اليك ايضًا لطهارة قلبك حتى مسح كل دمعة من عينيكِ . وكانت هذه الصبية امينة حاضنة سليم

وحينئذٍ مضى الناسك والفتاة وسليم الى منزل الراعي وبقي صاحب الماعز يرعى الغنم الى ان يعودوا . فلما وصلوا خرج الراعي

وامراتهُ وترحبا بهم فقال سليم اهذان ابي وامي قال الناسك لا ياولدي وستراهما عن قريب قال اراهما في غاية ما يكون من اللطف والانس واودُّ لو ابقى عندهما

وبعد تناول الطعام مضى ابن الراعي مع الناسك وسليم وامينة ليدخلوا المدينة فوصلوا مساء الى قرية كبيرة في وادٍ عريض فتعجب سليم من كثرة البيوت . وكان لم يرَ في زمانهِ بيوتًا مجتمعة هكذا . فباتوا هناك وثاني يوم ركبوا عجلة وحسب الناسك انهم يصلون الى القصر في صباح اليوم الثالث

فاول يوم من هذا السفر قضي بسلامة وانشراح وكان سليم يلتذ جدًّا بسير العجلة ورؤية مرور الاشجار حولهُ في الظاهر وكان كلما راى قصرًا يقول اما هذا قصر ابي وامي . وعند مساء اليوم الثاني دخلوا حرشًا كثيفًا وكانت الطريق صعبة السلوك واتفق ايضًا ان ثارت زوبعة شديدة فعصفت الرياح بشدة وتوالت الامطار كالانهار ودهمهم الليل الحالك فصاروا يفتشون على منزل يأوون اليهِ في ذلك الحرش الذي يدل ظاهره على انهُ مأوى اللصوص . فوجدوا فندقًا منفردًا ينزلهُ ابناء السبيل في اوقات الشدة . فقدم لهم صاحبهُ الطعام ثم ادخلهم الحجرة التي اعدها لهم فناموا حالاً لينهضوا باكرًا ويتمموا سفرهم

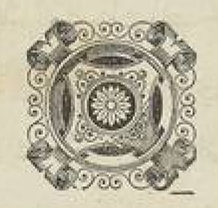
وفي نصف الليل انتبه الناسك واوقد شمعة وقعد يقرأ في كتاب ديني . واذا بضجة عظيمة قد ارتفعت في الخارج واصوات عدة رجال تدوي كالرعد وهم يصرخون ويضربون الابواب ضربًا عنيفًا . فاستيقظ كل من في الفندق بارتعاد وخرج الناسك من حجرتهِ ليرى ماذا طرأ . فقالت امينة وقد استيقظت مرتعبة آه يا ربي . هؤلاء هم اللصوص اتوا لياخذوا سليمًا من يدنا غصبًا . فاسكتها الناسك ونزل الى الدار فوجد صاحب الفندق يرتعد خوفًا ولا يجسر ان يفتح الباب فقال لهُ الناسك ثبت جنانك يا ابني واتكل على الله فانا افتح الباب واقابلهم لعلي اسكنهم بلين الكلام . وما يريد الله فهو واقع

ثم فتح الباب فدخل اربعة رجال اشدَّاء مدججين بالسلاح ومع احدهم مشعل فقالوا نطلب ان ندخل كل حُجَر الفندق ونفحص كل الاسرَّة لنرى من هنا . فان مولانا قادم ويريد ان يكون كل المنزل تحت امرهِ فقال الناسك من هو مولاكم يا اخوان قالوا هو الامير صاعد صاحب القصر الكبير في المدينة القريبة

فلما سمع الناسك ذلك اخذه الانذهال من هذا الاتفاق الغريب وكان الامير عائدًا الى قصره بعد عقد الصلح ومعهُ خواص جنودهِ . فنهض كل من الفندق مبادرًا لخدمتهِ لانهم

يحبونهُ ويحترمونهُ في كل تلك الاقطار . واعتذر الرجال المذكورون عن هذا العنف الذي اظهروه بان شدة المطر وظلام الليل وصعوبة الطرقات الجأتهم الى ضيق الاخلاق وما عادوا يطيقون صبرًا في الخارج وانهم كانوا شردوا عن الطريق في جوف ذلك الليل الهائل فاهتدوا بنور خفيف رأوه من نافذة احدى الحجر

فلما سمع الناسك هذا الكلام تخشع فوادهُ وحمد الله حمدًا كثيرًا لانهُ يدبر الامور بحكمة سامية فان النور الذي رأوه هو نور الشمعة التي اوقدها في نصف الليل فكانت واسطة لارشاد الامير الى منزل يجد فيهِ ولده من غير ان يذوق لوعة فقدهِ



الفصل الثامن

طمأنينة الامير

وبعد نحو نصف ساعة حضر الامير وحيي الناسك تحية الاحترام ودعاه ان يكون معهُ في المنزل الذي أُعدَّ لهُ واجلسهُ على المائدة بجانبهِ واستدعى بالخمرة التي كانت معهُ وملأ لهُ قدحـاً وآخر لنفسهِ وشرب على صحتهِ وقال لهُ ايها الاب الموقر اتعلم انهُ يلذ للانسان جدًا ان يجد مأوى في وقت مثل هذا حيث الليل دامس والامطار غزيرة والوحول مالئة الطرق والتعب آخذ من البدن كل مأخذ. غير اني سررت بزيادة من رؤيتك وانسك وتبرَّكت بطلعتك الجليلة وشيبتك الصالحة. وثقةً بما ظهر لي من سلامة طويتك احببت ان افتح لك صدري واطلعك على سرّي. فاعلم ان رفاقي هؤلاء في اشد الفرح برجوعهم الى منازلهم بعد مقاساة اهوال الحرب الطويلة . غير اني انا اميرهم اشقى انسان بينهم فعوض ان اشاركهم في افراحهم أشعر في قلبي بحزن عميق لا اعرف سببهُ حتى اخال اني متى وصلت الى بيتي اجد الاكدار مالئة

الاقطار على اني اعلم ان صحة امراتي جيدة لكن يختلج في صدري هاجس عظيم من جهة ولدي فان امهُ لم تطلعني على شيء من اخبارهِ منذ مدة طويلة اطلاعاً ترتاح اليهِ نفسي حتى لحظت في رسالتها الاخيرة انها تتكلم كلاماً مبهماً بخصوصهِ كانها تنذرني بويل استعدُّ للقائهِ. فمن ثم كنت في قلق زائد وما عدت اطيق صبراً حتى اقف على الحقيقة. وانا اعلم ايها الاب المحترم انك تعرف كثيرين من الامراء وقواد الحرب وطفت البلاد حتى لا يخفى عليك شيء من امور البيوتات. فارجو ان تفيدني هل عرفت شيئاً عن احوال قصري

فقال لهُ الناسك ووجههُ يتلألأ بالسرور ايها الامير الفاضل لتطب نفسك وتقرّ عينك فان ابنك في سلامة وعافية طيبة وما علمت اني رايت ولداً الطف ولا اظرف منهُ

فاشرق جبين الامير فرحاً وقال أفتعرفهُ اذن قال نعم اعرفهُ حق المعرفة لكن اعلم انهُ في مدة غيابك الطويل حدثت حوادث تستحق الذكر خارقة العادة بخصوص هذا الولد. ثم اخذ يقص عليهِ اخبار سليم وما جرى لهُ من يوم دخل المغارة الى تلك الساعة. واراه حينئذٍ صورة امهِ. فوثب الامير دهشاً وقال نعم نعم هذه هي بعينها اما الآن فلا بد ان صورة وجهها تغيرت كثيراً بهذه

الاسباب . فقل لي بحياتك اين ولدي الآن . قال هو هنا في هذا البيت . فصفق الامير يديهِ طرباً ونهض دهشاً حتى انقلب كرسيهُ وقال كيف كتمت عني ذلك الى الان يا ابي الموقر بحياتك اوصلني اليهِ في هذه الدقيقة

فاخذ الناسك قنديلاً ومشى امام الامير الى ان دخل بهِ الحجرة والولد نائم على سريره ووجههُ يتلألأُ نضارة و بهاء كوجه الملاك . فشخص فيهِ الامير وجعل يتأملهُ ولا يشبع من النظر اليهِ وعيناهُ تذرفان الدموع . فقال ما الطف وما اجمل هذه الطلعة البهية كبر وتكمّل ولدي العزيز الوحيد . آه ما اعظم شكري لحذقكِ وشهامتكِ ايتها الامّ المحبوبة الان فهمت مضمون رسالتك . ما اجود ما فعلت بعدم التصريح لي بابنك حتى لا تسحق قلبي جزعاً قبل اجماعي بكِ

ثم امسك يد الولد وقبلهُ وقال . سليم . يا ولدي الحبيب . انتبه انظر الى ابيك فها هو . انا هو . فانتبه الولد وهو يفرك عينيهِ ونظر الى ابيهِ متحيراً وكان لا يتمكن من فتح عينيهِ في النور بعد النوم . ثم قال لهُ أأنت ابي . اصبحت بخير يا ابي العزيز وامي اليست معك . فرفعهُ بين ذراعيهِ وضمهُ الى صدره . وجعل يقبلهُ ويلاطفهُ ولا تشبع منهُ نفسهُ وهو يسكب الدموع

ثم قال لهُ ان الله انقذك بعنايتهِ العظمى يا ولدي العزيز فألف شكر لرحمتهِ الواسعة وانت ايها الاب الجليل كيف اكافئك على فضلك السابغ وباي كلام اشكر همتك

وكانت امينة في اثناء ذلك قد دخلت الحجرة ووقفت منفردة حياءً من الامير حتى وقع عليها نظرهُ فمدَّ لها يدهُ وبشَّ في وجهها . وقال لها لا ملام ايتها الفتاة فهكذا كانت مشيئة الله وانا اعلم صلاح قلبك . واما اللصوص فويل لهم اسال الله ان يعينني عليهم فاجعلهم عبرة لمن اعتبر

وفي الحال امر جنوده ان يكبسوا الاشقياء في عرينهم ويقبضوا عليهم ويشدُّوا وثاقاتهم ويقودوهم اذلاَّء الى القصر ليتبصر في امرهم بعد وصولهِ . ثم عاد الى موانسة ابنهِ وهو لا يشفى لهُ غليل من تقبيلهِ والنظر اليهِ ومحادثتهِ . فقال لهُ الناسك ايها الامير لا الومك على هذه السكرة التي سكرتها من الفرح واني متحقق انك تحيي اكثر من ليلة على هذه الحالة غير انك تعلم ان الناس يحتاجون الى النوم ولا سيما نحن وانت وولدك حتى ننهض باكرًا ويسهل علينا الوصول عاجلاً الى القصر . قال صدقت ايها الاب الجليل الفاضل . فليأخذ كلٌّ راحتهُ في سريره

الفصل التاسع

لذة الاجتماع

كانت الاميرة في اثناء مجرى الحوادث المار ذكرها قد قضت ايامها في الاحزان والقلق والنوح لايقرُّ لها قرار ولا ترقأُ لها دمعة . وحيدة كئيبة في قصرها لا تذوق طيب الرقاد ولا تهنأُ بطعام ولا شراب . ولما علمت بخبر عقد الصلح فرحت جدًّا لقرب لقاء زوجها غير ان فرحها هذا استحال الى كآبة شديدة فقالت في نفسها . آه ما اشقى حياتي. الافراح بخبر السلم قد عمت الجميع لكنها كانت عندي دسمًا ممزوجًا بالسمّ . فامرأة احقر الجنود تفرح بلقاء بعلها . واما انا فقرب بعلي يملأ قلبي رعبًا . ويلاه ليس يعلم ما سيلاقيه من شدة الجزع واللهفة من اين لي قوة قلب ان اطلعهُ على خبر هذه المصيبة. وستكون حياتنا مذ الان محفوفة بالاحزان والاكدار

وفي ذات يوم خرجت الى الجنينة وجلست على مقعد وهي في قلق عظيم واخذت تنتحب ثم تصلّي ومضى عليها اكثر من ساعتين وهي في هذه الحالة الشديدة . وبينما هي كذلك اذ سمعت صوت

شيء سريع فالتفتت و رأت منظرًا خفق لهُ قلبها . رات امينة قادمة اليها مستعجلة ووجهها يتهلل فرحًا . فانعش الامل قلب الاميرة وابرقت عيناها و رات هذه الفتاة كملاك مرسل من السماء . فلما دنت منها امينة صاحت بصوتها المطرب قائلة . يا مولاتي يا سيدتي العزيزة اتيتك ببشارة تملأ قلبك سرورًا اتيتك باسعد الاخبار . سيدي الامير الصغير في الحياة والعافية وها هو آتٍ فقومي واعتنقيه

وما انتهت امينة من كلامها حتى اقبل الناسك وكان قد سبق الامير وابنهُ ليسكّن جاش الاميرة ويلطف تاثرها الشديد من هذا الفرح الفجائي . ثم اخبرها بلطف وحذق بقدوم زوجها وابنها بحيث تتدرج بالسرور تدرجًا . فاخذت يدهُ وقبلتها واجزلت لهُ الشكر وبالغت في الثناء على مروّتهِ ومواساتهِ لولدها ثم دعتهُ ان يمضي معها الى غرفتها في القصر لياخذ لنفسهِ راحة من مشقة الطريق . وقصدت راسًا الغرفة التي كان بها ولدها في سريرهِ بجانب تختها

فلما فتحت الباب وقفت دهشًا وارتعش بدنها فرحًا فانها رات زوجها جالسًا على كرسي وولدها في حضنهِ . فنهض لها الامير فاشتد خفقان قلبها حتى لم تستطع ان تقول الّا هاتين الكلمتين .

زوجي . ولدي . ثم انطرحت على صدر الامير وفاضت عيناها بالدموع وبقيت ساعة لا يطاوعها لسانها على الكلام وهي تعتنق زوجها وابنها

فلما سكن جاشها وملكت نفسها قالت الان يطيب لي الموت ولا اسف على الحياة لاني ذقت حلو الدنيـــا ومرها واختبرت عسرها ويسرها . وكنت اخاف يا زوجي العزيز ان القاك وحدي فاذا انت قد لقيتني وولدي بين يديك . فالشكر لك الشكر لك يا الهي على هذه النعمة العظمى . وما دمت حية لا اسقط جزعاً امام ويل يصيبني لاني علمت ان يدك مبسوطة فوقي وتنتشلني من وهدة الاحزان

وبعد ذلك اخذ سليم يقص على امهِ بالتفصيل كل ما جرى لهُ بحماسة لطيفة ورشاقة محبوبة حتى كانت تارة تترقرق الدموع في عينيها وطوراً تبتسم ابتهاجاً بحديثهِ . واظهر شدة تعجبهِ من مناظر الطبيعة في اول ما وقع عليها نظرهُ عند خروجهِ من شق الصخر وازداد حماسة في الخبر عن تاثيراتهِ حينما علم بوجود الله خالق كل هذه الاشياء البديعة العجيبة

فقال الامير يا حبذا لو كان حدث لي في حداثتي ما جرى لهذا الولد المحبوب الممتلىء نعمة وكياسة فاننا اعتدنا ان نشاهد عجائب

المخلوقات فتتلاشى بالعادة سرورانفسنا بها. آه يا ليتنا نقدر ان نشاهد مصنوعات الله دفعة واحدة كما شاهدها سليم ولا سيما بعد ان يتكامل عقلنا فكم كنا نقضي من الاندهاش والاعتبار لعجائب هذا الكون العظيم. وما كانت تاثيرات هذه المشاهد تمحى من مخيلتنا مدى الحياة

فقالت الاميرة نعم ان مشاهدة الطبيعة فجأة كما شاهدها سليم مما يستحق الاعتبار غير ان الله قد اذخر لنا مشاهدة اعظم منها بكثير دفعة واحدة وذلك حينما ينقلنا من هذه الدنيا الفانية الى احضانهِ السماوية في دار البقاء

الفصل العاشر

عقاب اللصوص

وبعد ايام قليلة وصل جنود الامير الى القصر وهم يقودون اولئك اللصوص بالوثاقات الشديدة وكانوا قد وفقوا الى لقائهم جميعًا في مغارتهم. وكانوا موثقين اثنين اثنين و وراءهم عجلة مشحونة بالامتعة النفيسة التي كانت في المغارة وفيها مربوطة المراة النورية

وكان اللصوص حينما افتقدوا سليماً وما وجدوهُ ظنوا انهُ وقع في حفرة عميقة داخل ذلك المعدن البعيد الاطراف الكثير الفزور والشقوق . لانهم وجدوا باب الحديد مقفلاً وما كانوا يعرفون الشق الذي خرج منهُ ولذلك لم يسعوا في التفتيش عليهِ وقد اعتقدوا انهُ هلك

فحالما أُدخلوا القصر ووقع نظرهم عليهِ اخذهم الانذهال واحتاروا كيف خرج ولم يفتح باب الحديد . وقال مقدَّمهم كنا نعتقد انهُ ليس في الدنيا احد يساوينا بالمكر والبسالة وكثرة الحيَل فهذا ولدٌ قد فاق علينا وغلبنا بدهائهِ واتى بنا بالسلاسل والقيود . افليس هذا من اعجب العجب . وقال واحد منهم كنا نامل باسرهذا الولد ان يكون ضامناً لحياتنا عند الاقتضاء فاذا هو نفس الواسطة التي ادت بنا الى الهلاك فقد صدق المثل القائل من نصب شركاً لاخيهِ كان هو الواقع فيهِ

واما اللص الفتى الذي قلنا انهُ كان يتودَّد الى سليم وان في قلبهِ خميرة من الدين فصرخ قائلاً ان الله بعنايتهِ درَّب خطوات الولد في سبيل نجاتهِ وقد سررت بخلاصهِ ولو كان فيهِ هلاكي . فان الله يحمي الابرار ويوقع نقمتهُ على الاشرار . وارى انهُ صدق فيناما كانت امي تقول لي دائماً . انهُ ولو اختبأ الشرير في اقصى كهوف

الارض فان الله يتخذ وسائط عديدة لكشف شره وتاديبهِ

ولما راى سليم هذا الشاب موثقاً مع رفاقهِ احزنهُ امرهُ ورق لهُ قلبهُ لانهُ كان حسن السلوك والموانسة معهُ فشفع فيهِ عند ابيهِ وطلب ان ينجو من العذاب لانهُ كان محبًا لهُ في ذلك الكهف وشفيقًا عليهِ . فقال الامير الآن لا ابتُّ حكمًا لكني آمر ان تحسن معاملتهُ . ثم بواسطة الاستنطاقات المكررة وتقريرات الدعوى عرف ان هذا الفتى كان بصفة خادم للصوص لا يشاركهم في قبائحهم . فعفا عنهُ حاقنًا دمهُ لكن على ان يحبس مدة الى ان تظهر منهُ دلائل كافية على استقامة تصرفهِ وصحة توبتهِ . ثم قال لهُ قد علمت ايها الفتى ان الانسان يجازى على العمل الطيب كما يعاقب على الردي. فانت بحسن معاملتك لولدي حق لك ان يلطَّف تاديبك ولكي احسن جزاءك على مواساتك لولدي في الكهف أعدِك اني انظر في مصلحة امك ولا انقصها شيئًا من امر معيشتها الى ان يشاء الله ويرشدك حتى تستقيم سيرتك فاردَّك الى احضانها بامان

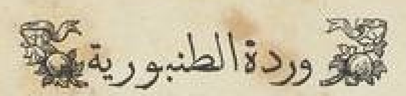
واما بقية اللصوص فضربت اعناقهم . وجعلت النورية في مطبق لا تخرج منهُ الا مدرجة في الاكفان . وردَّت الامتعة المسروقة الى من عُرِف من اصحابها واما المجهول اربابها فامر الامير ببيعها وان يبنى بثمنها منزل للايتام

وامينة بقيت في خدمة مولاتها وقضت ايامها بهناء وسلام .
وجرجس الغلام البستاني كان قد طرد من القصر منذ امد طويل وكان مطبوعًا على خصلتين ذميمتين فساد السيرة والسكر فمرض ومات في شرخ شبابهِ . والفتى الراعي جزي جزاء حسنًا واعيد مكرّمًا الى بيت ابيهِ في الجبل

وسال الامير الناسك ان يبقى مقيمًا في قصرهِ فقال حبًا بكم اقيم بضعة ايام غير اني يشقّ عليَّ ترك عزلتي . واحب ان اقصر غابر ايامي على عبادة الله . وقد رايت من فوائد النسك ما حملني على زيادة الرغبة فيهِ ومن حسن العبادة ما اتى بالعجائب وقد عشت زمنًا مديدًا بين الناس وفي جواري هناك جماعة يحتاجون الى ارشاداتي والذي يكون في سني لا يحسن بهِ الا ان يقضي بقية عمرهِ في الصلاة وعمل الخير

فالآن اودّعكم يا اعزّائي واقبّل ولدي هذا الصغير
القبلات الاخيرة . وليكن الله السلام معكم
اجمعين وينعم علينا بالاجتماع
في ملكوتهِ السماوي . فقالوا
جميعهم آمين

قصة



وردة الطنبورية

في

فضل اكرام الوالدين

الفصل الاول

تربية وردة

كان في ارض صوابة من بلاد السويس حصن عالي البنيان ثابت الاركان متين الجدران قائم على اكمة صخرية بين هضاب ووهاد كثيرة الزروع والازهار والثمار عند حضيض جبال السويس الشامخة التي لا يفارقها الثلج صيفاً ولا شتاء . وذلك القصر محفوف بالاشجار المختلفة الانواع . وهو قديم العهد جداً فسيح

الجوانب تدل آثارهُ العجيبة على عظمتهِ القديمة . واسمهُ الحصن الطنبوري

وكان من جملة اصحابهِ الاقدمين امير مشهور في تلك البلاد بشجاعتهِ واقدامهِ وحسن تدبيره في الحروب واستقامة سيرتهِ وحسن عشرتهِ وحبهِ لعمل الخير . يقال لهُ عزيز وامرأتهُ فاضلة نقية اسمها حسيبة جميلة الصورة شريفة النفس كريمة الاخلاق مطبوعة على الادب والمعروف . ولهما ابنة وحيدة لطيفة جدًّا يقال لها وردة

وكان الدوق حاكم ارض صوابة يحب هذا الامير ويجلّ مقامهُ والامبراطور ملك السويس يعتبره كافضل ابطالهِ وفرسانهِ . وكانت تلك الايام ايام فتن وحروب كثيرة ولذلك كان الامير عزيز يقضي اكثر اوقاتهِ في الغزوات مع الدوق وتمضي عليهِ احيانًا سنة وسنوات لايدخل قصرهُ

فكانت امرأتهُ في غيابهِ تقصر عنايتها على تربية ابنتها وردة وتجتهد ان تغرس في قلبها جراثيم التقوى والفضل فترى عليها ملامح الادب والورع في كلِ تصرفاتها . وكانت وردة تطيع امها طاعة عمياء وتحب والديها حبًّا شديدًا وتكرمهما اعظم الاكرام وتظهر لامها من الحنوّ اكثر مما تظهر لها امها وهي مع ذلك مواظبة على احترامها

والمبادرة لامتثال اوامرها

وكانت حسيبة دائمًا تذكر لها فضل ابيها ورفعة شانهِ وحبهُ للقريب وشدة اشتياقهِ الى بيتهِ وخصوصًا الى وردة ابنتهِ الوحيدة حتى كان الامير على كثرة غيباتهِ وطول مدة ابتعادهِ كانهُ مرسوم في عقل وردة وقلبها تحبهُ وتكرمهُ وهو غائب كانهُ حاضر . وكانت امها تقول لها غالبًا يا وردة كوني مطيعة راغبة في الفضل والعلم كما يريد ابوك حتى اذا حضر وسالني عن سلوكك واجتهادك اجيبهُ بما يرضي خاطرهُ ويسرُّ نفسهُ . ولذلك ازدادت رغبة وردة في كل ما يأول الى اكرام والديها ومصلحة نفسها الدينية والادبية . فكان ابوها كلما اتى قصرهُ يبتهج بها ابتهاجًا شديدًا وتكون موضوع تلطفاتهِ وحنوهِ

وكثيرًا ما كانت وردة تدخل البستان مع امها للنزهة لكن كان لها اهتمام خاص بشجرة من الدرّاقن الاحمر المعروف في بلادنا بالزهري وذلك لان اباها كان يحب ثمر هذه الشجرة ويؤثرهُ على سائر ثمار الجنينة

ففي ذات يوم ورد الخبر بقدومهِ وانهُ يصل مساء وكان ذلك في اواخر الصيف وقد نضجت ثمار الشجرة المذكورة فاتت حسيبة ووردة الى الشجرة وقطفت الامُّ ثمارها وجعلتها ثلث

حصص واحدة لزوجها وواحدة لنفسها وواحدة لوردة . ثم قالت لبنتها اما انا فاحب ان اهب حصتي لوالدكِ لانهُ يحب هذه الثمار فقالت وردة وانا ايضاً اهبهُ حصتي لاني آكل ثماراً كثيرة غيرها وأحبُّ اليَّ ان القى والدي بهدية طيبة من يدي . ففرحت امها بحسن طويتها وشدة حبها لأبيها

واسرعت وردة فجاءت بسلَّة ظريفة ووضعت فيها الثمار ورتبتها ترتيباً لطيفاً ولم تاكل منها واحدة مع ان امها الحَّت عليها ان تذوقها . فلما حضر والدها حضرت لديهِ فرحة وقدمت لهُ هذه التحفة النفيسة من يدها فابتهج بها جداً وضمها الى صدرهِ بحنوٍّ عجيب

وليس حب الوالدين فقط هو الذي يجمّل الانسان ويكمل آدابهُ بل يجب ان يقترن ايضاً بمحبة القريب والمبادرة الى اسعاف المحتاجين وبذل الجهد في عمل الخير حتى يبلغ الفضل غايتهُ والادب كمالهُ والتقوى اغراضها . واذ كانت الاميرة حسيبة عاكفة على البرّ مواظبة على اعمال الرحمة كانت دائماً تفتح لبنتها سبيل هاتين الفضيلتين وترشدها الى سلوكهِ . فكانت اولاً توزع على المحتاجين ما يحتاجون اليهِ من دراهم وطعام وحطب ونحو ذلك فلما صارت وردة قادرة ان تفعل ذلك صارت تنوب عن امها

في اكثر الاحيان وتزيد عليها في بذل الخيرات للعدو والصديق . كل ذلك بتدبير امها وارشادها حتى صارت هذه الفضيلة ملكة راسخة فيها

ففي ذات يوم اعطى الامير ابنتهُ دينارًا تتصرف بهِ كيفما شاءت فطربت وردة بهذا الدينار الذي كان عندها بمثابة كنز وعلمت انها تقدر ان تشتري بهِ اشياء كثيرة ظريفة لطيفة لكنها احتارت ما الذي تختارهُ فشاورت امها في ما يناسبها . وهي تحسب ان تصرف هذا الدينار بوجه من الاوجه لان اباها سمح لها بهِ

وفي تلك الايام كان الوبا قد فشا في البهائم فاهلك كثيرًا منها واتفق ان ارملة كان عندها بقرة واحدة تقوم بمعاشها فماتت فدخلت قصر الامير في الساعة التي بها كانت وردة تستشير امها في كيفية صرف الدينار . فتقدمت الارملة الى الاميرة بشكواها فقالت لها الاميرة يسوءني يا اختي ان لا اقدر ان اعوّض عليك فقد اعطيت كثيرين غيرك ممن هلكت بهائمهم ولم يبق معي الا شيء قليل ومع ذلك لا ابخل عليك فاعطيك ما يتيسر لي الآن . ثم قامت ودخلت غرفتها ورجعت وبيدها بعض دراهم تساوي نصف دينار فناولتها اياها وقالت لو امكن تحصيل دينار فوق هذه لهان الامر واستطعت ان تشتري بقرة احسن من التي

خسرتها

وكانت وردة تسمع الكلام باصغاء تام وتتامل في حالة هذه الارملة المسكينة فتحركت عواطفها والهمها ضميرها السبيل الذي يحسن صرف الدينار فيهِ فثارت من ساعتها فرحة بهذا الاتفاق الجميل واتت بالدينار واعطتهُ لامها وقالت . هوذا ديناري يا امي اسمحي لها بهِ لتشتري بقرة فانا عندي كثير من الثياب والحلى . وهي احوج الى البقرة مني الى الحلل والجواهر

فهذا باب لطيف فتحتهُ الاميرة لبنتها لعمل الخير ولذلك بعد ما خرجت الارملة اعتنقت الاميرة وردة وقالت لها ما اجمل ما صنعت يا ولدي فان هذا الصنيع اثمن في عيني من كل الدنانير والجواهر السنية

وكانت حسيبة قد عودت وردة حسن الطاعة ايضاً والمبادرة الى امتثال اوامر الوالدين قائلة ان التردد والعصيان من اكبر العثرات في سبيل الفضيلة . وان الولد يجب عليهِ ان يذعن لارادة والديهِ عن طيب خاطر ومن ثمَّ يسهل عليهِ ان يذعن لمشيئة الله بالرضى التام . وباقتلاع الاعشاب الردية تنمو وتنتعش الحشائش النافعة . فتنقية قلوب الاولاد من الاميال الشريرة واسطة عظمى لنمو بذار المبادئ الجميلة فيها .

ولذلك كانت تجتهد بجمل وردة على حسن الطاعة ولا تطيق ان ترى فيها ما ينافي هذا المبدأ الصالح حتى صارت وردة اذا سمعت كلمة واحدة من امها تسرع الى اجابتها مع انها كانت تحاول اولاً تليين امها بدموعها اذا اصرّت على طلب شيء لتنا لهُ فصارت اذا قالت امها لا اسمح تسكت راضية لعلمها انهُ من العبث اصرارها على عزمها وان كلمة امها قاطعة وان كثرة الدموع لا تلينها

وكانت الاميرة تجد وسائل كثيرة لتعوّدها ان تقمع شهواتها وتحكم على ارادتها الطائشة فصارت اذا امرتها بشيء تبادر الى اجابتها تاركة كل عمل وكل لعب لا تتعلل باقلّ علة. ومن ثمَّ لم تكن تقطف زهرة ولا ثمرة من الجنينة الا باذن من امها ولذلك كانت حكمة الاميرة لا تسمح لها ان تشدّد على ابنتها الاوامر حتى لا تدعوها الى التضور اخيرًا او العصيان سرًا. وكانت تكره كثرة الامر والنهي والتوبيخ والتهديد للاولاد لان ذلك يضعف قلوبهم ويخمل عزة نفوسهم ويضعضع افكارهم حتى لا يعود لهم هدًى الى الصواب. وكذلك كانت تقتصر من التعاليم على اوضحها واخفها ثقلة كما ان الله حصر اوامرهُ في عشر وصايا

وكانت ترى من الواجب ايضًا جزاء الاولاد وقصاصهم ليجتهدوا في الحسَن ويتجنبوا القبيح من القول والعمل. فكانت تقول

لوردة اذا حفظت الدرس الذي افرضهُ عليك او اتقنت الشغل الفلاني فاني اعطيك هذه التفاحات الحمراء الكبيرة او هذا العنقود العنب الاسود ٠

فكانت وردة تبالغ في الاجتهاد وتقوم احسن قيام بكل عمل تفرضهُ عليها امها فتعطيها ما وعدتها بهِ فتجد لهُ لذة عظمى اكثر مما لو نالتهُ مجانًا . ومن المعلوم ان ثمرة التعب فائقة اللذة . واما القصاص فكان اولاً منعها عن دخول الجنينة مثلاً او عدم تنفيذ ارادتها ثم صارت حسيبة تقتصر على التوبيخ اللطيف كقولها مثلاً ما هذا العمل ياوردة . او لا يعجبني تصرفك هذا . او ما كنت اظن انك تفعلين هذا الفعل . او ايليق بك ان تكدري امك في غياب ابيك ونحو ذلك ٠ فيكون هذا الكلام كافيًا لتوبتها واصلاح خطاها لانها مطبوعة على اللطف ولين العريكة

وكانت ايضًا لا تدع فرصة لوردة تمضي بلا عمل لكي تكون دائمًا ملتهية بامور نافعة لان المثل الدارج يقول راس البطال دكان الشيطان. فهكذا عودتها النشاط وصارت تمقت الكسل لانها كانت دائمًا تجد لذة في الراحة بعد التعب وفائدة في الشغل وبالمواظبة صارت تتقن غزل الكتان ونسجهُ وتعمل لنفسها ملابس من نسج يدها فتسرُّ بها اكثر من شقق الحرير ومهرت في الخياطة

وبرعت في التطريز وتعلمت كثيرًا من هذه الاشغال البيتية فضلاً عن الدروس المختلفة التي كانت تفرض عليها كل يوم . ثم ادخلتها في خدمة المطبخ لان حسيبة كانت متواضعة جدًا تحب ان تطبخ بيدها وتقوم بخدمة بيتها تارة بنفسها وتارة بملاحظة الخدم فصارت وردة تعرف اشياء كثيرة من امور المطبخ وعمل الحلويات والمربيات . فبتشكيل الاشغال ما كانت تضجر ولا تتعب من اي شغل كان وتحسب ذلك رياضة لبدنها وعقلها . ومن ذلك اتصلت الى اعمال خاصة في الجنينة من حرث وزرع وسقي وما يتعلق بذلك

ففي ذات يوم طبخت بنفسها طبخة حمص كانت هي بيدها قد زرعت حبوبها وساست نباتاتها وحصدتها ونقَّت الحبوب . فلما اكلت هي وامها وجدت لهذا الطعام لذة لم تذق في حياتها اعظم منها

ولما كبرت وردة كانت امها تجتهد ان تقلل في عينها اعتبار الزخرف والحلى ونحو ذلك من الزينة الجسدية . فاتفق يومًا ان والدها دعا الى وليمة بعض اصحابهِ من الشرفاء وكان معهم نساؤهم وبناتهم فظهرت وردة في ذلك اليوم بابهى الحلل وابدع الحلى فصارت النساء والبنات يطنبن في وصفها فابتهجت وردة كثيرًا واعجبت بنفسها . وفي آخر السهرة بعد انفضاض المجلس قالت لها امها اتعلمين يا ابنتي ان هذا الكلام الذي سمعتهِ من النساء قد

كدرني لاني لم اسمع الامدحاً بحسن ظواهرك فالثناء على الملبوس والجواهر ليس لهُ تعلق بك انما هو خاص بالحائك والخياط والجوهري والصائغ . واما الثناء على محاسن وجهك فانما مرجعهُ لواهب الجمال وليس لك في ذلك اقل فضل ومع ذلك فهو ظلٌّ زائل ولون حائل كالزهرة تكون في اول امرها نضرة بهجة ثم تذبل فيزول رونقها وتدوسها الارجل . واما الصفات الحسنة التي يستحق الانسان الثناء عليها فهي الاخلاق الرضية والقلب الطاهر والسيرة المستقيمة . هذا الذي يجب ان يثني بهِ عليك الناس فتسرّ نفسك

وكانت حسيبة في كل هذه الامور قدوة صالحة لبنتها لان سلوكها كان قليل المثيل بين نساء عصرها فالذي لا تعلمهُ وردة بالكلام تتعلمهُ بالاختبار من تصرف والدتها . وعلى الخصوص الاتضاع ورقة الجانب والبشاشة والانس للفقير والحقير مع انها كانت في درجة عالية من الشرف والغنى . وبشاشتها الدائمة لم يكدرها شيء من امارات الغضب ولم يسمع من فيها قط كلمة بطالة . وكانت مواساتها للفقراء والمرضى وسائر المصابين نادرة المثال . فكل هذه الخصال الحميدة انطبعت في بواطن وردة ورسمت كل حياتها على جبينها

وفي احد الايام سمعت حسيبة بامراة فقيرة مريضة فقامت

حالاً واخذت اشياء كثيرة نافعة واستصحبت وردة ومضت الى
منزلها الحقير وصارت تفحص عن احوالها واصل علتها حتى عرفت
كل ما يلزم لها فبادرت الى اعلام الطبيب وصارت تدفع لهُ
الاجرة وتاتي كل يوم وتسقيها الدواء بيدها ووردة بصحبتها دائماً
لكي تطلعها على احوال هذا العالم الشقية وتختبر بنفسها مايقاسي الفقير
من الامراض والمشقات لتجد على ذلك صبراً جميلاً اذا قضى الله
عليها بمثل تلك الحال . فلما صارت تلك المراة في تمام الصحة قال
الاب لاولادهِ اركعوا جميعكم ايها الاولاد لنصلي لطول حياة هذه
السيدة الفاضلة التي كانت حياة امكم على يدها بعد عناية الله فركعوا
امامها وصاروا يقبلون يديها ويبللونهما بالدموع فتخشعت وردة
وعرفت مقدار امها وتيقنت ماينتج من الاعمال الخيرية من السرور
والفوائد



الفصل الثاني

وفاة حسيبة وجرح الامير

طالما يقضي الله بالآلام على الصالحين لان الله يجرب خائفيه. والدهر لا يصفو لانسان على كل حال فان وردة كانت في نعيم زائد وطيب عيش ودخلت في الرابعة عشرة من عمرها وهي في نضارة تامة وعافية طيبة. وفي ذلك الوقت دهم والدتها مرض عياء لزمت منهُ فراشها وظهرت عليها علامات الموت القريب في ايام قليلة وكان زوجها الامير غائبًا في الحرب فقالت لبنتها ارسلي باولدي في الحال واعلمي اباك ان الاجل قد دنا واحب ان اودعهُ ولو في اخر دقيقة من حياتي لاني لن اراه بعد على هذه الارض وادعي لي ايضًا بالاب بطرس يشجعني وينشطني لفراق هذه الدنيا ويفتح قلبي لقبول النعمة السماوية. لانهُ رجل تقي وهو الذي عمدني وكان كلامهُ تعزية لي فبادرت وردة في الحال وفعلت ما امرت امها وكانت دائمًا ملازمة سريرها تسمع نصائحها وتبتهج ببركتها

وبعد ايام وصل الامير فاستقبلتهُ وردة في اسفل السلَّم واعتنقته

وما استطاعت ان تتكلم لكن الدموع الغزيرة التي كانت تنسكب كالماء الغالي دلتهُ على قرب وقوع الخطر فاسرع لهفًا الى سرير امراتهِ المحبوبة وشعر ان قلبهُ انخلع من صدرهِ حينما شاهد شدة اصفرارها وهزالها وتيقن ان موتها قريب فجرت دموعهُ كالسيل و وقف بجانبها يتفرس فيها ووردة في الجانب الآخر من السرير راكعة تقبل يد والدتها فقالت حسيبة لزوجها بصوت ضعيف لايكاد يسمع يا بعلي العزيز قد اقتربت الساعة فلا تشرق عليَّ الشمس بعد هذه الليلة فتجلد ولا تيأس لانني راحلة من دار الفناء الى دار البقاء ومتى شاء الله واجتمعنا لايكون للقائنا فراق الى الابد . ثم قطعت الكلام ريثما تستريح وقالت . لم اعطك صورتي في الماضي واما الآن فاذا احببت ان تذكرني فعليك بهذه الولد لانها ممثلة لي في كل احوالي وصفاتي التفت اليها يا عزيزي بتلك الرأفة التي كنت تعاملني بها وخصصها بحبك الطاهر لاني قد ربيتها التربية التي يرضاها الله ويسرُّ بها قلبك فتكون تعزيتك الوحيدة على فقدي

وبعد ان استراحت قليلاً قالت لوردة كنت يا حبيبتي لذتي وقرة عيني في حياتي لم تكدريني بشيء بل كنت احسبك كملاك طاهر امام عينيَّ . ويسرُّني جدًا ان اشهد بك هذه الشهادة في آخر ساعة من حياتي . فثابري يا ولدي على الفضيلة والتقوى

واياك ان يغرّك الغرور وتحيدي مثل الشعرة عن سبيل الصلاح .
بالغي في اكرام ابيك واقصري عليهِ كل محبتك . واعلمي ان مصلحتهُ
تقتضي ان يكون عرضة للاخطار في كل وقت فاذا قضى الله عليهِ
بشيء من المصائب التي تستلزم من يعتني بشانهِ فكوني نائبة عني
بحنوٍ واجتهاد لا تملي ولو ثقل عليك الحال وكوني تعزية لهُ في
شيخوختهِ وسندًا عزيزًا في عجزهِ وبالاختصار كوني معهُ احسن مما
كنتِ معي لاني انا لم احوجك الى شيء من الاتعاب

ثم قالت بعد فترة قليلة اللهم القادر على كل شيء استجب
طلبة امٍّ مفارقة الدنيا ترجو من مراحمك ان ترعى بعنايتك ولدها
التي غرست في قلبها حبك وحفظ وصاياك . اتكل عليك اللهم
ان تحفظها من شرور هذا العالم وتسهل خطواتها في سبيل الفضيلة
وتويد قلبها بالنعمة . وتمنحنا نحن الثلاثة ان نجتمع اخيرًا في ملكوتك
السماوي . والآن بيديك اجعل روحي

ثم شهقت شهقة فارقت بها الدنيا وانتقلت الى الحياة الابدية
لتتمتع بالافراح السماوية . ففاضت عيون زوجها وبنتها بالدموع
واعلنا بالنحيب حتى تفطرت المرائر من شدة جزعها . وثاني يوم كان
المأتم حافلاً وشيع الجنازة خلق لا يحصى من كل تلك الاقطار
واشتد اسف العموم على فقد هذه المراة الفاضلة وكانوا يبكون عليها

ويندبونها كانها ام للصغار وشقيقة للكبار وبقي ذكرها الصالح يتردد على الالسنة الى الجيل الثالث والرابع بين اهل تلك النواحي

وبعد ايام التزم الامير ان يرجع الى الحرب فرجع في الخريف الثاني مجروحاً جرحاً بليغاً في يده اليمنى فحزنت وردة على مصائب ابيها حزناً شديداً ولازمت فراشهُ تعتني بشانهِ اشد اعتناء وكانت تصنع لهُ الاطعمة بيدها وتساعد الجرَّاح على ضمد الجرح واستمر الامير عليلاً مدة طويلة لم تقصر فيها وردة بشيء من الواجبات ولا شكت مللاً وكان يسوء الامير جداً طول بقائهِ في منزلهِ لا ينفع مولاه الدوق في حروبهِ فكانت وردة تاتي بادوات شغلها وتشتغل بجانبهِ وتسرد لهُ اخباراً وقصصاً من اعمال امها التقوية. وهكذا نقضت ليالي الشتاء وقارب جرح الامير الشفاء



الفصل الثالث

العدوّ والصديق

في اوائل الربيع اقبل الى القصر احد الفرسان الكبار وقال للامير عزيز ان الدوق يدعوهُ اليهِ لان مواقع الحرب تقتضي وجودهُ فاسف الامير اسفاً عظيماً لان جرحهُ لم يندمل تماماً ولم يجد في ساعدهِ قوة على تحريك السيف والرمح . فكشف للفارس عن جرحهِ ليقوم لهُ عذر . غير انهُ امر في الحال ان تجتمع رجالهُ الذين كانوا يصحبونهُ في الحروب وتتاهب للرحيل نجدة للدوق ولكي يحرك فيهم الحمية عمل لهم مأدبة حافلة استمرت ثلاثة ايام بافراح عامة

ولما كان اليوم المعين للرحيل جمعهم وجعل يوصيهم و يحثهم على الاقدام وبذل الهمة في مساعدة الدوق وقال لهم اخيراً كونوا اسوداً بازاء العدو وحملاناً بازاء اهل البلاد . ثم امرهم بالمسير تحت قيادة الفارس المذكور وبعد رحيلهم ظهر لهُ ذلك النهار اطول من شهر لكثرة ما اصابهُ من الضجر لتقاعدهِ كرهاً عن الحرب . ولما

كان المساء انت ابنتهُ وردة بعد قضاء اشغالها وجلست بجانبهِ وقالت لهُ يا ابي اتريد ان تقص عليَّ خبر هذا الرجل الذي عادك اليوم بعد الظهر لاني اعرفهُ اذ كان منذ مدة طويلة مقيماً في قصرنا وابنتهُ انيسة كانت رفيقة لي وانا صغيرة فقال نعم يا ولدي احب ان اطلعك على خبر هذا الرجل الصديق ولم تكن زيارتهُ اليوم عن عبث فقد اتى يسليني عن همي لاني ما استطعت الخروج للحرب وكان قد اصابهُ مرة نظير ما اصابني لانهُ كان من جملة ابطالي وشهد معي عدة مواقع واسمهُ بشارة الفحام لانهُ الان يمتهن هذه المهنة لاسباب اخبرك بها بعد ان اقص عليك اولاً خبر عدوٍّ لي اسمهُ جابر وهو امير نظيري مسكنهُ في تلك القلعة التي ترين ابراجها من شبابيك قصرنا . كنت انا وهذا الامير في صغرنا خادمين في قصر الدوق وكان منذ حداثتهِ شرس الاخلاق عنيف المعاملة وكان الدوق يحبني ويكرمني اكثر منهُ فصار يبغضني جداً لشدة حسدهِ فلما صرنا من الفرسان وجرى امتحاننا بركوب الخيل وابواب الطعن والضرب كانت الجائزة لي

ومن ذلك الوقت زاد بغضهُ لي وما عاد يطيق ان يراني ومما زادهُ حقداً وحنقاً واضرم نار الحسد والبغضاء في قلبهِ هذه السلسلة الذهبية التي اهداني اياها الملك وعلقها في عنقي بيدهِ على اثر معركة

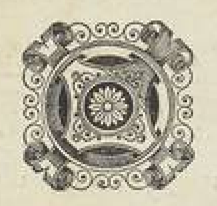
شديدة فزت فيها بظفر عجيب وفي ذلك اليوم عينه لام جابرًا وعنفهُ على طيشهِ وقلة تدبيرهِ حتى كادت عساكرنا تنكسر في تلك المعركة لولا حسن تدبيري

وكان بشارة حينئذٍ رفيقًا لي ولهُ قطعة ارض على تخوم املاكي متصلة ايضًا بحدود حرش جابر ولذلك كان يكثر الاساءة اليهِ لكونهِ صديقًا لي. وكان غالبًا يفتح سبيلاً لحيوانات حرشهِ كالايائل والخنازير فتاتي وتفسد في املاك بشارة وتخرب تخريبًا كثيرًا فأتى وشكا اليَّ حالهُ فقلت لهُ ان يقتل كل وحش يصادفهُ لان لي حقًا ان اضبط كل ما اراهُ في املاكي وانا احسب ارضهُ من جملتها ففعل ما امرتهُ بهِ غير ان جابرًا كبسهُ يومًا مع جماعة من حاشيتهِ واسرهُ وقصد تعذيبهُ باشد العذابات فاتت امراتهُ وابنتهُ تشكوان المصيبة فبادرت انا وجماعتي وكمنت لهُ على الطريق قبل ان يصل الى قصرهِ وهجمنا عليهم حين مرورهم بنا وظفرنا بهم وخلصنا بشارة وعدنا سالمين وجعلت بشارة وامراتهُ وبنتهُ في قصري وعينت لهم اعمالاً يعملونها ليعيشوا آمنين من شرّ جابر

ثم ان بشارة جرح في الحرب وانفت نفسهُ ان ياكل خبزهُ بلا عرق جبينهِ فعينت لهُ في الحرش واديًا صغيرًا حصينًا وبنيت لهُ بيتًا فاقام هناك يعمل الفحم ويزرع ما يكفيهِ من القمح وغير ذلك

من الحبوب والبقول فرجال جابر لا يخطر لهم ان يطرقوا ذلك المكان وقد غيرت هذه المهنة ايضاً هيئة بشارة ولونهُ بحيث لو رأوهُ لما عرفوهُ . فهو الآن عائش هناك مع عائلتهِ عيشاً هنياً مطمئن القلب يقنع بما قسم الله لهُ ولا يزال يذكر افضالي ويشكر اهتمامي بهِ

فقالت وردة لا يضيع يا ابي المعروف اينما صنع وفي المثل اطرح خبزك على وجه الماء فتجده بعد حين وهذا الرجل على ما يظهر يستحق الالتفات لانهُ صادق الوداد طاهر القلب . فقال الامير لي شواهد كثيرة يا ابنتي على حسن طويتهِ وامانتهِ . ثم جعل يسرد لها كثيراً من اخبارهِ حتى مضى جزء كبير من الليل



الفصل الرابع

نكبة عزيز

بينما الامير يقص لابنتهِ اخبار بشارة الدالة على امانتهِ وسلامة نيتهِ اذ سمعت في داخل القصر جلبة عظيمة بين قعقعة سلاح وضجة رجال ثم سمعت اصوات مشي سريع كأن الجماعة قادمون الى الغرفة التي فيها الامير وابنتهُ فنهض حالاً يطلب سلاحهُ وقامت وردة واقفلت الباب غير انهُ دُفع بعنف وانفتح ودخل رجل مدجج بالسلاح ووراءهُ عدة ابطال فصرخ هذا الرجل وعيناه تقدحان شرارًا. اين انت يا عزيز فهذه ساعة الانتقام انظر فاني انا جابر قاهر الفرسان ومبيد الاعداء اتيت لآخذ ثاري منك فابشر بحلول الويل والهوان ثم التفت الى اتباعهِ وقال قيّدوهُ واحتفظوا عليهِ الى وقت رحيلنا . سيكون منزلك ايها الشقي اقبح مطبق من مطابق قصري وقد صارت املاكك في حوزتي والآن اختار من قصرك ما يوافقني وادع الباقي للنهب. اسرعوا ايها الرجال في ثلاث ساعات يجب ان نرحل

فلما شاهدت وردة هذا الهول العظيم فاضت عيناها بالدموع ورمت روحها على اقدام هذا الرجل العاتي وصارت تتوسل اليهِ ان يشفق على ابيها فدفعها بفظاظة وخرج . وتقدم الرجال الى الامير عزيز وكبلوه بالقيود ووقف اثنان يحرسان الباب

وكان جابر اللعين قد اغتنم الفرصة في تلك الليلة ليصبَّ نقمتهُ الشيطانية على هذا الامير الجليل لانهُ علم ان يده لا تطاوعهُ على حمل السلاح بسبب الجرح وان جنودهُ سافرت الى مكان الدوق لتعينهُ في حربهِ ولم يبق عنده الا الحرس ومن جملتهم جندي حقير لا خير فيهِ فرشاهُ جابر بالمال حتى دلهُ على منفذ سرّي يدخل منهُ الى دهليز طويل يؤدّي الى داخل القصر فلم ينتبه الحرس الى ذلك حتى كان جابر قد دهمهم بجماعتهِ واخذوا اسلحتهم

وحينئذٍ دار جنود جابر في جوانب القصر ينهبون ما يقع لهم ويتلفون ما يقدرون عليهِ وكانت وردة راكعة بجانب ابيها وهو مقيد تندب سوء حظها وتنتحب فقال لها سكني روعك يا بنية فهكذا حكم الله علينا لمقاصد سامية لا ندركها فيجب ان نذعن لمشيئتهِ لانهُ لابد ان ينظر الينا ويخلصنا بذراع قوية لا نقطع الرجاء من رحمتهِ فانهُ عمل ذلك لخيرنا ولعل اعداءنا نفسهم يصيرون لنا اصدقاء في وقت من الاوقات ويحوّل الله حزننا الى فرح والآن يجب ان

يفرقوا بيننا فعليك بالصبر الجميل. فقالت وردة وهي تقبل يديهِ وعنقهُ كيف يا ابي الحنون يمكن ان انفصل عنك فاني اتعلق بك حتى أُقتل واكون معك حيثما ساروا بك الى السجن او العذاب او الموت فاجابها بهدوءٍ قائلاً يا ابنتي لاتحاولي المحال فان هذا الظالم لايمكن ان يبقيك معي فانظري الى طريقة تهربين بها اسرعي الى بعض خدمنا فهو يساعدك على الخلاص فقد استولى جابر على كل ما نملك يدنا فصرتِ الآن من جملة الفقراء المساكين لا تجدين من مال ابيك قوت ليلة . لا يسقط فوادك فالخيرات لاتدوم للانسان وعندك كنوز لا تقدر من الفضائل والخصال الحميدة فهي اثمن من الذهب والجواهر فكوني بها سعيدة ولا يستطيع احد ان يسلبها والآن اشير عليك ان تمضي حالاً الى صديقنا بشارة الفحام فهو يحسن الالتفات اليك وامرأتهُ تحسبك نظير ابنتها انيسة فتعيشين بسكون واطمئنان فالعيش الهني والموت بسلام اعظم ما يتمناه الانسان في هذه الدنيا . فلا تضجري من الاشغال ولو كانت شاقة فاثار الشغل في اليد اثمن من خاتم الماس في الاصبع الترفة وفي وقت مثل هذا تعرفين مقدار فضل امك بكونها عودتك ان تواظبي على العمل ولا تانفي من الخدمة . واما انا فلا تهتمي بشاني اكثر من ان تصلي لاجلي والله لا يتخلى عني واذا قدر الله ان لا اراك فيما

بعد فاوصيك ان تحافظي على كل ما قلتهُ لكِ وتذكري نصائح امك
وتقتدي بسيرتها . فخذي الآن هذه السلسلة الذهبية والذخيرة
المعلقة بها لانها تذكار من انعام مولانا الملك فلا تبيعيها ولو سففت
التراب فقد تسعفانك يوماً ما بان تكونا شهادة على انك سليلة
العائلة الطنبورية الشريفة

وفي تلك الساعة سمعت ضجة عظيمة في انحاء القصر لان الامير
جابراً امر بالتاهب للرحيل ودخل جماعة منهم غرفة عزيز فطوقتهُ
وردة بذراعيها وتوسلت ان يقودوها معهُ للاسر لكن اولئك
الوحوش لم يعطفوا عليها ودفعوها بشراسة واخذوا اباها من بين
يديها ووضعوهُ في عجلة حقيرة مكشوفة حتى صار يرتعد من شدة
البرد . وقامت وردة تراقب حركاتهم وتفتش على جابر لعلها تلينهُ
بتوسلاتها حتى رحلوا فرأتهُ راكباً فرساً وماشياً بجانب العجلة التي فيها
الامير عزيز فبادرت اليهِ وصارت تنوح وتتوسل ان يضعوها مع
ابيها وهي تركض بين العجلة وفرس جابر ولم تخف ان تُصدَم لقلة
المبالاة بها لان همها ان تكون مرافقة لابيها لتخدمهُ وتسليهِ في محبسهِ .
واما جابر فكانت اذنهُ صماء عن تضرعاتها وعينهُ عمياء عن دموعها
الغزيرة فامر حالاً بالسرعة حتى لم تقدر وردة ان تلحق الجمع لضعف
قوتها غير انها لم تزل تركض حتى اعيت وسقطت على الارض وهي

تلهث وكانت قد وصلت الى وسط الحرش والظلام محدق بها والبرد يفعل في اعضائها

الفصل الخامس

هول ليلة ونهار

كانت وردة لم تتعود الخروج من قصر والديها الى مسافة بعيدة واذا اتفق خروجها لم تكن وحدها قط ولا خرجت ليلاً مرة واحدة في زمانها ولا اتفق لها مرة التعرض للعواصف والامطار والبروق والرعود ولا وجدت في وسط حرش والظلام حالك والنوء شديد كما حدث لها في تلك الليلة الهائلة فانها بعد ان ابعد الجماعة الذين ذهبوا بابيها وامواله بقيت منفردة في ذلك الحرش الكثيف وهي هالكة من التعب وفوق ذلك ازداد ويلها بثورة نوء لم تشاهد مثلهُ في حياتها فكانت البروق تلمع والرعود تعصف والرياح تشتد والامطار تقع كسيول متدفقة فاحتارت في امرها ولم تجد مأوًى تلجأ اليهِ ولا سبيلاً تهتدي الى سلوكهِ

ثم ان الله تعالى لهداها الى خميلة من الشجر استترت بها من المطر والرياح ومع ذلك لم يخامر الخوف قلبها لان الحزن كان اكبر شاغل لها وكل همها متعلق بابيها وبقيت كذلك الى ان لاح الفجر فخرجت من تلك الخميلة ونظرت حولها فوقع نظرها على ابراج قصر ابيها فصرخت قائلة ياليتني اقدر ان ادخل هذا القصر دقيقة لعلي ارى بعض خدمنا الامناء يوصلني الى منزل بشارة لكن من اين لي ذلك وقد اغلقت دوني ابواب هذا القصر واقفر بعد الانس

وحينئذٍ خطر في بالها ما قال لها ابوها من جهة موقع الوادي الصغير الذي فيهِ بشارة فوجهت خطواتها الى جهة الجبل الذي راتهُ في وسط الحرش واتكلت على الله ومشت غير انها ضلت في الحرش لكثرة وعريتهِ وكثافة اشجارهِ ولم ترَ سبيلاً يسلك فكانت تخرق الاشجار الشائكة وتقتحم الصخور المستوعرة وتتخلل المنافع وتقطع السيول الجارية وما عادت رأت الجبل بل اصبحت تائهة في تلك الغابة المشتبكة الى ان صار الظهر

غير انها شجعت نفسها وبقيت تتقدم بما يمكنها من السرعة فصادفت خنزيراً برّيًا فخافت منهُ جدًا ودخلت اجمة كثيفة واستترت بها منهُ الى ان مرَّ ثم قامت تمشي معتسفة الى العصر ولم يقع

نظرها على سبيل مطروق فقالت واأسفاه. ماذا يحلّ بي اذا اضطررت ان ابيت ليلة اخرى في هذه الغابة المخيفة. وحينئذٍ شعرت باشتداد الجوع لان شدة حزنها كانت قد الهتها كل ذلك الوقت ولذلك تضاعف خوفها ايضاً لئلا تموت جوعاً وهي لا تجد شيئاً تقتات بهِ. فاستجمعت ما ابقى لها الجوع والتعب من القوى وقصدت اكمة صغيرة لعلها ترى من قمتها دليلاً تهتدي بهِ

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب والغيم متلبد حولها وهيئة الافق تؤذن بويل جديد فركعت بعد ما وصلت الى قمة الاكمة وصلت قائلة يا الهي قد اوقعتني بهذه الورطة فانت وحدك قادر ان تنقذني منها وتهديني الى ما بهِ خلاصي. وبعد دقيقة انقشع الغيم عن الشمس وانتشرت اشعتها فرات عن بعد عمود دخان كثيف صاعداً من وسط الغابة فقصدت حالاً جهتهُ لانها علمت منهُ ان هناك منزل بشارة

وكان بشارة في تلك الساعة جالساً على قطعة من جذع شجرة وامامهُ اصل جذع آخر قد سمر عليهِ لوحاً حتى صار كالمائدة وامامهُ عشاؤهُ من خبز وزبدة وابريق ماء وهو يرتل ترتيلة المساء وصوتهُ يتردد بجهارتهِ في تلك الغابة السائد فيها السكون. فسمعتهُ وردة واسرعت المشي فلما قربت منهُ ورآها طفر اليها طرباً وعجباً

وسلم عليها وترحب بها وسالها عن حالها وما اتى بها وحدها في تلك الغابة الكثيرة المخاوف فاخبرتهُ بما جرى على ابيها من ظلم جابر حتى فار دمهُ لشدة الغيظ من هذا الفعل البربري

ولما سكن قليلاً شعر ان الفتاة محتاجة الى الطعام والراحة فقدم لها الطعام الذي امامهُ فاكلت بلذة وشربت حتى ارتوت من الماء الصافي البارد وشكرت الله واثنت على معروف بشارة فقال لها انا عبدكم يا سيدتي فكوني براحة بال فكلنا هنا خدم لك انا وامراتي وابنتي واني سابذل جهدي للسعي في ما بهِ مصلحة ابيك فاطلبي الى الله ان يساعدني واما الآن فيجب ان نهتم براحتك فبيتي بعيد من هنا لا تقدرين ان تمشي اليهِ غير اني نصبت كوخاً هناك . واشار بيده . تبيتين فيهِ هذه الليلة براحة بال من جهة المطر والرياح وانا اكون معك لا افارقك وانام في تلك الاجمة بالقرب منكِ

وكان بشارة في كل تلك الليلة لم يغمض لهُ جفن اولاً لكثرة همهِ من جرى هذه النكبة التي اصابت الامير بسببهِ لانهُ لو لم يفعل ما فعل مع الامير جابر ليخلص بشارة حينما اسرهُ لما وصل الشقي الى هذا الحد من الفظاعة . ثانياً لاشتغال افكارهِ بوردة لانهُ كان يخاف ان تستيقظ بسبب من الاسباب وتخاف اذا سمعت صوت وحش او حركة عنيفة

ثم صار يفتكر ويمعن النظر في كيف يفعل حتى يدبر على خلاص سيدهِ وانهُ هو اولى من غيرهِ في الاهتمام بشانهِ لانهُ يعتقد انهُ هو سبب نكبتهِ ثم ركع وصار يصلي بحرارة . وبقي على هذا الحال الى الصباح

واما وردة فكانت قد نامت ملء جفونها كل الليل مع انهُ ثارت زوبعة شديدة كالتي كانت في الليلة الماضية وبقيت الى قرب الفجر

الفصل السادس

اقامة وردة في منزل الفحام

ولما اشرقت الشمس قدمت انيسة بنت بشارة ومعها سلة فيها طعام ابيها لذلك النهار . ورأتهُ مكدراً فسألتهُ ما السبب فاخبرها الخبر فحزنت جداً حتى جرت دموعها وحينئذٍ هبّت وردة من نومها فاسرع الفحام وابنتهُ اليها وسلمت عليها انيسة سلام الاحباب وصارت تلاطفها وتذكرها بايام الصغر فانست بها وردة ووجدتها تعزية

عظيمة في مصيبتها

ثم قال لها الفحام الآن ياسيدتي تذهبين مع انيسة الى البيت وتقيمين الى ان ياذن الله بالفرج وانا افتكر هنا بالطريقة الموافقة لسعي مفيد واذهب اراك حينما تسمح لي الفرصة ودعي عنك هذا البكاء فهو لا يجدي نفعاً بل اتكلي على الله وصلي لاجل خلاص ابيك عسى الله ان ينظر اليك

ومضت وردة بصحبة انيسة وقاست على الطريق مشقات كثيرة لكثرة الوعر هناك ولما وصلت رات البيت لطيفاً حسن الموقع وذلك الوادي النضير كثير الاشجار المثمرة والازهار البديعة وفيه ساقية صافية تجري بعطفات كثيرة بقرب البيت والخضرة كاسية الارض بالطول والعرض والجبال محدقة بذلك الوادي تمنع عنهُ عنف الزوابع والبقر والمعزى تسرح بهدوٍ بين مروجهِ المخصبة . وفي زاوية من الجنينة عدة خلايا نحل فيها العسل الفاخر . والطيور الاهلية والبرية تحيي تلك الاراضي بحركتها واصواتها المختلفة . فابتهجت وردة بهذه المناظر الطبيعية الانيقة وشكرت الله على خيراتهِ

واستقبلتها امراة الفحام بحنوٍ ولاطفتها وقالت لها لا تحزني يا ابنتي فانت هنا ترتعين في خيرات ابيك لانهُ هو الذي بنى هذا

البيت وانعم علينا بهذا المكان الجميل . فكل ما هو هنا ملكك ونحن نحسب من جملة خدمك فقالت لها اشكر الطافك يا اماه فان ابي قد وضع المعروف موضعهُ . وكان قد صار الظهر فقامت المراة تدبر الطعام

ومضت مدة ايام ولم يات بشارة الى البيت غير انهُ قال لبنتهِ آخر مرة وقد اخذت لهُ الطعام انهُ ذاهب الى المدينة ليبيع الفحم وياتي الى البيت راسًا . وبعد ذلك لم يرجع الى ان مضت ايام كثيرة حتى اشتغل بال عائلتهِ كثيرًا . ثم اقبل وبيده قوس وعلى كتفهِ جدي بري اصطادهُ من الحرش ففرحت وردة بقدومهِ وتقدمت هي وانيسة وسالتاه عن غيبتهِ فقال ياسيدتي قصدت في هذه الايام كل الامراء اصحاب ابيك وطرقت منازلهم واخبرتهم عن شدة مصيبة ابيك وطلبت اليهم بالحاح وبراهين قاطعة ان يعملوا طريقة لتخليصهِ اما بالرضى او بالغصب فقالوا يصعب علينا ان نهجم على جابر لانهُ رجل جبار قويٌّ فعجبت من قلة معروفهم وتغاضيهم عن صديق مخلص نظير ابيك وقلت لم يبق في الدنيا مروءة ولا وفاء . اذا كان هولاءِ هم قادرون لا يلتفتون الى صديقهم فما يقول المساكين الذين نظيري . ومع كل ذلك لم يسالوني عنك ولا اكترثوا بهذه المصيبة ناسين قول المثل الصديق عند الضيق .

ولذلك قد عزمت يامولاتي ان ابقيك في بيتي اذا رضيت ولاسبيل ان ترجي احداً من اولئك الكنودين . فقالت وردة احب اليَّ البقاء في منزلك لاني احسبهُ نعيماً على ان لا تستثقل من وجودي مدة طويلة فقال والدمع يترقرق في عينيهِ كيف تقولين هذا ياسيدتي فاني انا وعائلتي وكل ما تملك يدنا صنيعة والدك الرؤوف فاذا خدمتك طول حياتي وبذلت لاجلك دمي يكون ذلك قليلاً في جانب جميل ابيك

واقامت وردة مدة طويلة في بيت هذا الرجل الشكور بهناء وصفاء عيش وهو يزيد في ملاطفتها ويبالغ باكرامها ويأتي لها بانواع القصص ويسليها باحاديث مختلفة مفيدة ولذيذة . وامرأتهُ وابنتهُ تواظبان على موانستها وتنظران في احتياجاتها وعملت لها كسوة لائقة بها على قدر الطاقة . وكانت تصرف اكثر اوقاتها مع انيسة تتسليان بامور كثيرة بين شغل ولهو وتنزه وزرع بقول وزهور ونحو ذلك

غير ان مصيبة ابيها لم تكن تفارق افكارها وكانت دائماً تسأل بشارة عن اخبارهِ فيخبرها بوسائط تخطر على بالهِ لتخليصهِ لانهُ كان دائم الاهتمام بهذه المسألة . وكانوا كلما اجتمعوا . اي بشارة وعائلتهُ ووردة . يكون موضوع حديثهم هذه المسألة . فبينما هم على

الطعام يوماً وقد دار الحديث بهذا الخصوص وفرغوا من الاكل وبقي شيء من الفطر الحلو قال الفحام لوردة كلي يامولاتي كلي من هذا الفطر الذي يتمنون مثلهُ كل يوم في قصر جابر . ولي صاحب فحام كان كل يوم ياخذ كمية وافرة ويبيعهم ووضع ابنتهُ بصفة خادمة عند امرأة البواب · وهذه امراة شرسة حمقاء اساءت الى البنت فاخرجها من عندها وحلف ان لا يأخذ لهم فطراً ولو توسل اليهِ جابر بنفسهِ

فلما سمعت وردة هذا الحديث اشرق عليها نور انعش فوادها فقالت على الفوَر اسمع اسمع ألا يوافق ان اذهب انا بصفة بنت فحام واتداخل مع هذه المراة لعلي اتوصل الى ابي



الفصل السابع

دخول وردة في الخدمة

هذا الفكر الذي خطر لوردة بان تعمل نفسها بنت فحام وتاخذ الفطر تبيعهُ للبوابة نبه افكار بشارة وامراته الى واسطة جديدة تقتضي التبصر لان في اتمام ذلك خطرًا عظيمًا ومشقات كثيرة فصار بشارة اولاً يحاول اقناعها بعدم النجاح ويبرهن لها انها تصادف موانع كثيرة ولا تقدر على شيء واما هي فبقيت مصرّة على عزمها كانها تحققت ان هذه الطريقة الفجائية هي وحدها الواسطة لنجاحها وتخليص ابيها . ونهضت في الحال ودخلت البيت ولبست ثياب انيسة وخرجت فتعجب الفحام وامراتهُ من زيها هذا وقال لها بشاره هذه البدلة لائقة جدًا لكن ينقصك شيء حتى تكوني بنت فحام وهو ان يكون لونك اسمر فانا الآن اغلي لك بعض حشائش فتصبغين وجهك ويديك بمائها حتى لا ينكر امرك

فاستصوبت وردة هذا الراي وعزمت ان تسير ثاني يوم لئلاَّ

تسبقها بنت اخرى وقال لها بشارة حيث قد عزمت فاثبني واتكلي على الله فهو يرشد خطواتك ويوفقك الى سواء السبيل وانا اذهب هذا المساء واجني لك كمية من احسن الفطر وترافقك انيسة غدًا الى حدود الحرش فتصلان الى اكمة عليها ثلثة حجارة منصوبة ومن هناك ترين قصر جابر وتنتظرك انيسة هناك الى ان ترجعي

وثاني يوم قامت وردة باكرًا وودعت بشارة وامرأتهُ ومضت هي وانيسة فقال بشارة في نفسهِ لاشك ان هذه الفتاة تنجح ويدبر الله امورها لانهُ تعالى لا يخيب مسعى ولد يبذل نفسهُ حبًا بخير والديهِ. ولما وصلت الى الاكمة المذكورة ابصرت وردة تلك القلعة الشامخة الابراج وتنهدت وقالت هناك ابي يئن تحت اثقال القيود في كهف قبيح اترى القاه حيًا . عسى الله ان يقدر لي ان اجد نعمة في عيون اعدائي ويسهل طريقي ثم ودعت انيسة ومشت الى ان بلغت القصر

فاول شخص رأتهُ كان الامير جابرًا وهو راكب الى الصيد فلما ابصرت عيناها مضطهد ابيها ارتعش بدنها وجلست على حجر هناك حتى مرَّ ولم يلتفت اليها ومرت جماعتهُ وراءهُ ولم يكلمها احد منهم . فصارت تتامل كيف تعمل حتى تقابل امراة البواب وتحدثها فلم تجد واسطة الا ان تبقى في مكانها حتى ياتي احد ويسالها عن حالها.

وحينئذٍ اقبل اليها ولدان فنظرا اليها ووقفا لحيتها ببشاشة فتقدما قليلاً فقالت للصبي ما اسمك يا حبيبي قال تامر وقالت للبنت ما اسمك يا حبيبتي قالت برقة فجعلت تلاطفهما فتقدم الصبي ورفع غطاء السلة ومدت البنت يدها الى برنيطة وردة وكان عليها شيء من الازهار. فاعطتها وردة تلك الازهار ومدت يدها الى السلة فاخذت اجاصات كان بشارة قد وضعها مع الفطر وقسمتها بينهما ففرحا فرحاً شديداً وانسا بها وصارا يتحببان اليها

وكان هذان الولدان ولدي البواب وابوهما جالس في نافذة يراقب صنيع وردة معهما فتعجب من لطفها وكرمها ونظافة ثوبها ورقة حديثها فقال ما رايت في عمري بنت فلاح نظير هذه ثم خرج من البيت الذي كان فيهِ ودعا وردة ان تاتي اليهِ وقال لها هل معك في هذه السلة شيء للبيع قالت نعم وأرتهُ الفطر فقال كم ثمن ما معك قالت انظر بخبرتك فلست اساومك وانت لا تظلم فتاة فقيرة. فسرَّ الرجل بحديثها وقال حسن يا ابنتي انا الآن آخذ السلة الى رئيس الطباخين واطنب لهُ في وصف هذا الفطر وهم يثمنونهُ من مدة طويلة ولا شك انهُ يدفع ثمناً جيداً. ثم اخذ السلة ومضى

وبعد نحو ربع ساعة اقبلت امراة البواب وبيدها صحن شوربة

للغداء فلما رات وردة في غرفتها صاحت بغضب قائلة . وَيْ ما شان هذه الوقحة من اذن لها ان تدخل بيتي . من انت وما شأنك ياشقية . اخرجي حالاً والا ضربت راسك بهذا الصحن وحرّشت عليك الكلاب . فتقدم الولدان حينئذٍ وشفعا بها وأَريا امهما الثمار التي اعطتهما اياها . وللحال اتى البواب ايضاً وسمع من الخارج كلام امراتهِ فقال مالك غضبى لا تنكري من هذه الفتاة فانها لطيفة وديعة وانا ادخلتها هنا وبعثت لها الفطر الذي اتت بهِ . فقالت المراة اليس هنا ما يستوجب الغضب . واما انا فمحتاجة الى خادمة فما تقول فيها . قال من يخدمك وانت تغضبين من لا شيء قلت لك اني انا ادخلتها . قالت اذا كان كذلك فلا باس وقد رضيت الآن . وهل كنت اعلم انا ما فعلت انت . ثم قالت لوردة اسمعي يا ابنتي لا تنكري ما جرى فمصلحتنا تقتضي الحذر ناخذ اجرة وافرة لنراقب الداخل والخارج . فاجابت وردة لك الحق يا مولاتي وانما الخطا مني صدر لاني بقيت في بيتك وحدي فارجو الصفح عن زلتي . فابتهجت المراة من جوابها لانها كانت تسرُّ جدًا بمن يصوِّب مقالها ولا يجادلها فقالت لها حيث اطعمت ولديَّ ثمارك فتعالي اجلسي معنا للغداء

فلما جلسوا على المائدة صار الولدان يسألانها اسئلة مختلفة

فتحييها بلطف ورقة وما صار لها وقت ان تملأ بطنها من الطعام
حتى تعجبت المراة من انسها ولين عريكتها. ثم قامت واخذت سلتها
لتذهب فصاح الولدان. لا. لا. يجب ان تبقي عندنا. فقالت
المراة نعم هذا الحق وانا اسرّ جدًا ببقائك هل لك ما يمنعك من
الخدمة. فقالت وردة لا مانع يا مولاتي واحبّ ان اخدمك من كل قلبي.
قالت حسنًا اجبت فاذهبي واعلمي اهلك وتعالي يوم السبت

ثم اتفقتا على الاجرة وملأت لها المراة سلتها خبزًا ولحمًا مقددًا
وقالت لها سلمي على اهلك واخبريهم بالنصيب الذي حصل لك
عندنا ويوم السبت انتظر قدومك. فشكرت وردة معروفهم
وودّعتها ووعدتها انها تاتي يوم السبت. ومضت وقلبها يرقص
فرحًا

وكانت انيسة في انتظارها عند الاكمة فلما قابلتها وهي تكاد
تطير من الفرح سالتها عن سبب فرحها فاخبرتها بكل ما جرى.
ووصلت الى البيت واخبرت بشارة وامراته ففرحا لفرحها وطابت
نفسها بنجاحها غير انهما حزنا لفراقها

ولما كان السبت ودعتهم وردة باسف شديد ورافقتها انيسة
الى القصر ورجعت فتضايق صدر وردة حينما رات نفسها في
قصر عدوّها كانها منقطعة عن العالم بعد فراق اولئك الاصدقاء

غير انها تعزت باملها انها ستري اباها وربما يتفق لها ان تسعى بخلاصهِ . ثم جلست امراة البواب في كرسيها وقالت لها قفي امامي لاقول لك شيئاً فوقفت فقالت يقول الناس عني اني شرسة الاخلاق جافية القلب واللسان واني غيرت عشرين خادمة في خمس سنين لكن لا يقولون ما الاسباب فانا اخبرك بالاختصار وذلك ان اولئك الخادمات لم تكن واحدة منهن تصلح للخدمة فالاولى كانت متكبرة لا تذعن لراي غيرها والثانية شرهة نهمة والثالثة تحب النوم والكسل والرابعة تحب الترفه والاختلاس والخامسة تتزين وتتبرج يوم الاحد وتمكث وسخة زرية سائر الاسبوع والسادسة كثيرة النسيان وكذابة والسابعة كثيرة الفضول طويلة اللسان

وحينئذٍ قرع جرس الاستدعاء فقامت وقالت ساخبرك عن خصال الثلاث عشرة الباقي واوصيك منذ الآن ان تكوني قدوة للفتيات في حسن سلوكك . فوعدتها وردة ووفت بوعدها فانها كانت ترضيها من وكل وجه وتقوم بمصلحتها احسن قيام حتى لم تعد المراة تكلف نفسها ان تقول لها عن شيء من اسباب الخدمة بل تعمل فوق ما تطلب من تلقاء نفسها

وظهرت منها عفة وقناعة وجلد على الشغل ونباهة وامانة

فوق ما كانت مولاتها تامل واذا غلطت في شيء تعترف بخطاها واذا وُبخت ظلمًا تسكت صابرة ولا تتضجر ولا تدافع عن حقها فتشعر مولاتها بالرقة عليها من مجرد سكوتها . ومضت عدة اسابيع واشهر ولم يسمع من لسان تلك المراة كلمة تدل على الغضب حتى تعجب زوجها

وكانت الاعمال التي تتعاطاها كثيرة مختلفة شاقةً جدًا على مثلها فكانت تلتزم ان تنهض كل يوم باكرًا تاتي بالماء والحطب وتشعل النار وتغسل اوعية المطبخ وتكنس المكان وتفرك الكراسي والمائدة ونحوها وتغسل البلاط والشبابيك في المطبخ . ففي اول الامر وجدت صعوبة عظيمة وعدم استطاعة على اتمام كل هذه الاعمال فكانت مولاتها لا تزال توبخها وتهينها وتشتمها وتتهمها بالكسل والغباوة حتى تعودت وصارت تفعل كل ذلك بسرعة وحذق ونشاط وكانت الاطعمة جيدة في نوعها لكن غير طيبة ولا نظيفة فقاست عذابًا اليمًا حتى صارت تاكل بقبول . وفراشها كان نظيفًا لكن رقيقًا خشنًا على فتاة مثلها ناعمة البدن رخصة الاعضاء

وبعد ان تنتهي من مثل هذه الاشغال التي تقتضي النهار بطولهِ كانت تدخل غرفتها مساء حزينة كئيبة وتصلي الى الله ان يشفق عليها ويتحنن على ابيها ويكشف مظلمتهُ

الفصل الثامن

١

توصل وردة الى حبس ابيها

مضت ايام كثيرة ووردة تترصد فرصة تتوصل بها الى ابيها والظروف لاتساعدها غير انها علمت بتكرار البحث الدقيق ان مولاها البواب كان سجانًا ايضًا وكان يحضر الطعام الى المحبوسين كل يوم. فكانت تسالهُ وقتًا بعد وقت عن احوال هولاء المساكين كأنها تشفق عليهم فعلمت ان اباها في الحياة وعافيتهُ حسنة. فكانت احيانًا تطلب الى السجان. وهو مولاها. ان يدخلها المحبوس لتتفرج عليها فلا يجيبها. ولاحظت ان طعام ابيها كان حقيرًا جدًا مولفًا من صحن شوربة غير دسمة وكسرة خبز سوداء وابريق ماء فحزنت جدًا على حالتهِ الشقية

ففي ذات يوم مساءٍ كانت صحون الاسرى مصفوفة على المائدة لياخذها البواب فقال لها تعالي معي ياوردة حتى اريك المحبوس وادلّك على كل واحد من المحبوسين تقدمين لهُ طعامهُ لاني من

الغد مطلوب ان اكون خارج القصر في خدمة سيدي الامير
فتنوبين عني في غيابي لان امراتي لاتحب هذه الخدمة ولا تسمح لها
الظروف . ثم وضع الصحون على طبق كبير ومضى بها

وبينا وردة سائرة وراءهُ في دهليز طويل مظلم كان قلبها
يخفق لانها قادمة الى مشاهدة ابيها غير انها جمدت نفسها وقصدت
اخفاء حالها على ابيها لئلاً يعلم احد انها بنتهُ فينقلب الحال الى تعاسة
ولا تسلم مفاتيح السجون

فوصل البواب وفتح حبسين الاول فيهِ رجل متمرد والثاني امراة
متهمة بذنب كبير فقال لها لا تفتحي هذين الحبسين لانك لا تقدرين
على احد المحبوسين فيطرحك على الارض ويهرب . واما الحبس
الثالث الواصل اليهِ فصاحبهُ امين وضيع وهو الامير عزيز الطنبوري
فيمكن لك ان تدخليهِ مطمئنة لان الرجل شريف النفس . فلما
سمعت وردة اسم ابيها تحركت عواطفها ولما دخلت لم تكد تعرف
اباها لكثرة ما غيره الهم وحالة السجن لانهُ كان كالمغارة تحت الارض
كل ما فيها خبيث وكدر لكنها كبيرة مبنية بحجر مهندم ولها نافذة
صغيرة قرب السقف مشبكة بحديد غليظ فلا يدخل النور الا
ضعيفاً اذا كانت الشمس شارقة

فقال البواب للامير ايها الامير هذه مذ الان تاتيك بطعامك

بالنيابة عني لاني اغيب مدة في بعض مصالح سيدي فنظر عزيز
الى وردة ولم يعرفها فقال قد اثر فيَّ ما في هذه الفتاة من الشبه ببنتي
جسما وعمرًا . وطالما طلبت اليك ايها البواب ان تستخبر لي عنها فلم
تجبني ولم تفدني شيئًا ياليتني اعلم اين هي وهل وجدت مكانًا تطمئن
فيهِ فقال يشهد الله اني اسعى فلا اقف على اخبارها . فقال آه
ياليتك تعرفها وتعرف مقدار محبتها لي وحسن اخلاقها وطهارة
صفاتها ثم التفت الى وردة وقال

وانتِ يا ولدي كوني فتاة صالحة محتشمة واجتهدي
نظير بنتي ان تكوني قرة عين والديكِ

فشعرت وردة ان قلبها ينعصر من شدة تأثرها وكادت
ترمي نفسها على عنق ابيها لكن خافت من سوء النتيجة وتجلدت
غير انها لم تقدر ان تمسك دمعها المتحدر فقال لها ابوها ما لك
يا ابنتي هل اصاب والديك شيء قالت اما امي فتوفيت من مدة
طويلة واما ابي فهو في اتعس حال من الحياة واشدّ الآلام فقال
لينظر الله اليهِ فعليك بالصبر الجميل

فقال البواب لاتبكي يا فتاة لان ذلك لا يوافق ان اسلم
اليك مفاتيح المحبوس يجب ان تنتبهي الى مصلحتك . ثم قال للامير
وهذه البنت ايضًا صالحة حسنة السيرة لطيفة وديعة نشيطة في

اشغالها حتى لا يكون احسن منها الا نادرًا . فقال الامير يباركك الله ايتها الفتاة حافظي على الصلاح والتقوى لتكوني تعزية ابيك في احزانهِ . ومدَّ اليها يده فاخذتها وقبلتها وهي تبكي وقالت عسى الله ان يستجيب طلبتك يا سيدي . واما السجان فرقَّ قلبهُ كثيرًا حتى ما عاد يستطيع البقاء فخرج ولحقتهُ وردة

الفصل التاسع

اظهار وردة نفسها لابيها

كانت وردة كل تلك الليلة تتقلب على مهاد الاحزان وتخبط في لجج الهواجس وقبل الفجر دُعيت لتصنع للبواب زاد الطريق ففعلت ورحل الرجل سريعًا وارسل مفتاح باب القصر الى سيده جابر . واما امراتهُ فعادت الى فراشها ونامت فاستغنمت وردة تلك الفرصة الليلية ومضت الى حلقة المفاتيح واخرجت مفتاح حبس ابيها وكانت قد لحظت علامة فيهِ . واخذت قنديل السجان واخفتهُ تحت مئزرها ومضت حافية تختلس الخطى في ذلك

الدهليز ووصلت الى الباب وفتحتهُ بلطف فوجدت اباها جالساً يصلي فتعجب من دخولها وقال لها ما تريدين يا ابنتي في هذه الساعة قالت العفو ياسيدي اريد ان احدثك قال اما خفت من نتيجة هذه الطياشة قالت الكل نيام وقد حرسني الله لآتي واخبرك عن احوال ابنتك . فقال وهو منذهل ابنتي وردة تعرفينها . واهاً لهذه البشارة فقولي حالاً يباركك الله فاخرجت وردة سلسلة الذهب من جيبها وقالت هل تعرف هذه السلسلة . فازداد حيرة وقال كيف لا اعرفها اعطيتها الى وردة ساعة الوداع واوصيتها ان لا تبيعها فكيف وصلت اليك . فقالت وهي تجهش وقد حافظت عليها يا ابي تفرّس في وجهي انا وردة ابنتك . وكانت قد ازالت عن وجهها ويديها الصبغ الاسمر واظهرت القنديل ثم انطرحت على عنقهِ وصارت تنتحب واما هو فخنقتهُ العبرة وضمها الى صدرهِ وما استطاع ان يلتفظ بكلمة

وبقيا متعانقين مدة حتى شفيا الغليل واخذت تقص عليهِ اخبارها وحسن معاملة بشارة وعائلتهِ لها وكيف توصلت الى دخول القصر بخدمة البواب وما صادفت من الاهانات والعذابات وقالت احتملت كل ذلك بصبر ورضى تام لما علق لي من الامل بالوصول اليك لاخدمك بما ينفعك فاعد نفسي الآن اسعد البنات . قال

بل انت افضلهن واما انا فارى نفسي اسعد الآباء وقد هانت على مصائبي بل صرت اشكر الله لاجلها لانها عرفتني مقدار فضل ابنتي الوحيدة

ثم رجعت وردة الى غرفتها بعد الفجر واعادت الى وجهها ويديها الصبغة السمراء ودخلت غرفة مولاتها البوابة لتخدم على المائدة وحينئذٍ دخل الامير جابر وعليهِ هيئة الغضب فارتاعت وردة وظنت ان سرّها انكشف . فقال للمرأة ما عاد يتعلق بكما حفظ الابواب فقد وكلت بها اربعة من الجنود واما انتما فالزما المطبخ لان عندي وليمة هذه الليلة . ثم خرج وقد سرّ من رؤيتهِ علامات الخوف على وجه وردة وهو لا يعرفها وقد ظنها انها ناتجة عن شدة هيبتهِ

وبعد نحو ساعة صارت الفرسان والجنود تتوارد حتى ملأت جوانب القصر وقضوا تلك الليلة في الافراح بوليمة حافلة واخر السهرة رجعت البوابة مرتعدة وقالت لولديها فلنصلِّ الى الله لكي يحرس اميرنا واباكما قد انفتح باب الحرب وغداً يسير جميع اهل القصر الحربيّون . فعرفت وردة سرّ هذه الحفلة . وثاني يوم ركبوا وساروا واقامت وردة وامراة البواب ذلك النهار تغسلان ادوات المطبخ واوعيتهُ ومساءً قالت المراة غداً اريد ان امضي بولديّ لزيارة

والدتي لان الفرصة قد سمحت لي اليوم واحب ان اسلي نفسي ما اصابني من الهم بوقوع الحرب وسارجع نصف الليل واما انتِ فتستريحين طول النهار لكن عليكِ فقط ان تقدمي الطعام للمسجونين وتحضري لنا عشاء طيباً قبل رجوعنا

فلما خلا لوردة الجو ثاني يوم قالت هذه احسن فرصة اتملى بها من مشاهدة ابي . لانها كانت قبل ذلك لا تراهُ الا اختلاساً لكثرة اشغالها وخوف الرقيب . وكانت منذ مدة تهيئ لهُ خفية ملابس يحتاج اليها مثل اقمصة وجرابات ونحو ذلك وفرغت منها ذلك اليوم فاخذتها وحملت طشتاً فيهِ ماء سخن وصابونة ومنشفة ومفاتيح القيود . فانتعش الامير ذلك النهار ووجد راحة لم يحصل عليها منذ دخولهِ السجن . ثم اخرجتهُ من باب سري الى روضة كانت قد اعتنت بها قبل ذلك فانشرح صدرهُ وظن نفسهُ في النعيم واحضرت لهُ الغداء وهو جالس تحت جوزة كبيرة وكان مولفاً من اطعمة كلها لذيذة . وبقي كل ذلك النهار وهي تمضي وترجع اليهِ . ثم ادخلتهُ مساء الى حبسهِ فبهت متعجباً اول ما دخل وظن انها غلطت عن المكان لانهُ راى السقف والجدران مبيضة ناشفة لا اثر للرطوبة عليها والارض مفروشة برمل ناشف والنافذة منظفة حتى ظهرت السماء من وراء زجاجها . وفراشهُ نظيفاً مجدداً

طيب الرائحة وبالاختصار راى في حبسهِ انقلاباً عجيباً كانهُ صار من غرف قصره وزادهُ رونقاً الزهور التي ملأتهُ بروائحها العطرة وهي موضوعة على طاولة من حجر . فما وجد كلاماً يعبر بهِ عن احساساتهِ حينما عرف ان ابنتهُ عملت كل هذا وحدها في الفترات التي كانت تفارقهُ بها وهو جالس في الروضة غير انها اخبرتهُ انها استعانت بصانع معوَّه كانت قد خدمتهُ في مرض اصابهُ وهو في الحبس وكان يعرف فضل ابيها ويحبهُ ويحترمهُ . ثم قال لها قد تعجبت يا والدي فمن اين لك كل هذه الاشياء قالت كن مطمئناً فهي لي بحقي من تعبي واجرتي لم تمدَّ يدي الى شيءٍ لا يخصني وانت بي اخبر . وكتمت عنهُ ان الوسادة التي اتتهُ بها هي نفس وسادتها

وهكذا كانت كل يوم تاتيهِ باشياء جديدة والوان طعام لذيذة تحرم نفسها منها لاجلهِ واستمرت على ذلك الى ان عاد البواب من الحرب ودخل السجون فتعجب من حال الامير عزيز لكنهُ سرَّ باطناً فقال لوردة سراً لست الومك يا ابنتي على ما فعلت من الجميل مع هذا الامير الشريف لكن اوصيك ان لا تتجاوزي الحدود لئلا تقعي تحت الشبهة واياك ان تحاولي فتح سبيل لهُ للفرار فنهلك جميعنا فقالت من هذا القبيل لا يشتغل فكرك وانت تعرف اماني وعزة نفس الامير وان شئت حلفت لك بكل ما تريد . فسكت

الفصل العاشر

مصائب الامير جابر

في ذلك الزمان شاع الخبر ان الامير جابراً انكسر في معركة كبيرة وجرح وانهزم بجيشهِ الى بلاد بعيدة فقوي عزم اعدائهِ وجعلوا يقطعون الطرقات على من ياتي قصرهُ بالزاد وما عاد احد يقدر ان يمتار لاهل القصر حتى ذاقوا البلاء من احتياجهم الى الاطعمة الطيبة واشتد خوفهم ايضاً من الاعداء حينما اشاعوا انهم يقصدون الهجوم على القصر . ولزيادة النحس اصيب ولدا الامير بالجدري وبقيا مدة طويلة تحت الخطر . ثم مرضت الام لكثرة همومها وقلة نومها وطعامها

وعلمت وردة هذه الاخبار من ولدَي البواب واخبرت اباها وكانت تمقت ذكر عائلة الامير جابر لما اظهر من القساوة والفظاظة ضداً ابيها وقالت لابيها هوذا الويلات آخذة تنصبُّ عليهم وربما اتى الاعداء وهجموا على القصر وسبوهم واذاقوهم البلاء كما

اذاقونا

فالتفت اليها ابوها وانتهرها قائلاً ما هذا املي فيكِ يا وردة اتشمتين بالعدوّ عند مصيبتهِ . أهذا ما تعلمتهِ من الديانة وعلم الادب · اتسرّين بعذاب امراة جابر واولاده بجريرتهِ وهم ابرياء هذا ايضاً راي اشدُّ سفاهة. واعلمي يا ابنتي اني لو رايت جابراً ساقطاً في الحرب لبادرت الى نجدتهِ تحت اشدّ الاخطار . وانت ايضاً لو استغنيت وافتقرت عائلة جابر وطلبت اليك صدقة فهل يطاوعك ضميرك ان تمتنعي من الاحسان الى اعدائك . فقالت كلاّ يا ابي من طبعي الاحسان الى كل من يسيء اليّ فقال والشماتة وقت المصيبة نظير قلة الاحسان الى المحتاج . فهم الان يحتاجون الى تعزية وتسلية فاجتهدي منذ الان ان تسعي بكل ما تكون بهِ راحتهم وتعزيتهم لا طمعاً بنوال رضى الامير لعلهُ يخفف عني بل حباً بخير القريب فقط فاقطعي كل نظر عن المكافاة وبادري الى اعانة هؤلاء الحزانى بنية صالحة

ومن ذلك الوقت غيرت وردة سلوكها بازاء اولاد جابر وصارت تلاطفهم بعد ان كانت تحوّل وجهها عنهم حينا كانوا يلعبون في دار القصر حتى انها اوصت انيسة مرة (لانها كانت تاتي غالبًا لزيارتها) ان تاتيها بيامنتين وحمل لطيف . وكانت وردة قد

ربت هذه الحيوانات فلما جاءت بها انيسة قدّمت الحمل للغلام واليمامتين لاختيهِ . ووبخها ضميرها على قلة التفاتها اليهم سابقاً لان الصغير بريء على كل حال مما يفعل والدهُ او والدتهُ

واتفق يوماً ان الاولاد كانوا يلعبون في روضة قرب الدار وان الحاضنة نقلا التي كانت متكفلة بالمحافظة عليهم دخلت المطبخ انقياداً لشهوة بطنها . وكان في تلك الروضة بئر واسعة الفوهة عميقة جداً لها خنزيرة معلق بها دلو كبيرة تدلى بسلسلة من حديد . ولشدة عمق البئر جعلوا لها على مسافات متباعدة من جدرانها كلاليب من حديد تعلّق بها السلالم اذا ارادوا النزول اليها لتنظيفها . ولها على دائر فوهتها درابزين من حديد يتخللهُ قائمتان غليظتان عليهما تدور الخنزيرة

فبينما الصبي يلعب عند البئر واختاه تجنيان حبَّ الغبيراء بعيداً عنهُ وتنظمان منهُ اساور وقلائد اذا بعصفور وقع على الدلو وهي مدلاة في البئر على عمق نحو ذراع . فابتهج الولد بالعصفور واسرع الى فوهة البئر ليمسكهُ ودلّى نفسهُ قليلاً قليلاً لينالهُ بيده فاختلت الموازنة وسقط في البئر وكانت اختاه تشاهدان فصاحتا صياحاً شديداً وسمعت نقلا فارتكضت مرتاعة ولما علمت المصيبة التي دهمتها اعولت وولولت وتقدمت الى البئر فرات الولد على عمق نحو عشرين

ذراعًا معلقًا بثيابهِ باحد الكلاليب وهو يصيح ويستغيث فاحتارت المراة في امرها واضاعت رشدها فلم تعرف ما تعمل . وكان الخدم جميعهم خارج القصر في اشغالهم والامّ في اواخر مرضها في فراشها ولم يكن هناك الا وردة تراعي بنت مولاتها الصغيرة

فلما سمعت وردة صراخ المراة والبنتين اركضت لترى مـا الخبر وحالما علمت اسرعت الى البئر ووضعت رجليها في الدلو وتمسكت بالسلسلة باحدى يديها وقالت لتقلا دلي الدلو حالاً ففعلت حتى وصلت الى الصبي فقالت لها كفي فكفت فصارت تمد يدها وتحاول امساك الولد واقتلاعهِ من الكلاَّب المعلق بهِ ولسبب سعة البئر قضت صعوبة شديدة جدًا حتى خافت ان تقع هي ايضًا فرفعت عينيها الى السماء وقالت يا الهي لا تخيب مسعاي الخيري ثم اجهدت نفسها واعانها الله فتناولت الولد من يديهِ وهو مادّها ويصيح خوفًا وقالت لتقلا ارفعي الدلو فبارتفاعها اقتلعت ثياب الولد من الكلاب ووضعتهُ بجانبها وضمها الولد بكلتا يديهِ حتى بلغت فوهة البئر وقد خلصتهُ ونجت مبتهجة واسرعت فاخبرت والدها فسر بفعلها كل السرور وهنأها على نجاحها بهذا العمل الصالح والسعي المبرور

ولكثرة ما حدث من الصراخ عند وقوع الولد بلغ الصوت

مسامع والدتهِ الاميرة فسألت ما الخبر فاعلموها وفي الحال جزعت اشدَّ الجزع وغشي عليها ولما استفاقت نهضت من فراشها وخرجت الى الطنف واذا بتقلا قادمة عليها ومعها الصبي والبنتان فاطمأن قلبها وكانت قواها قد تلاشت بسبب ما حصل لها من الحزن والقلق على ما بها من المرض. فاخذت ابنها بين ذراعيها وضمته الى صدرها وهي تذرف الدموع واستخبرت منهُ بالتفصيل عما جرى. فقالت لهُ وهي تذرف الدموع ايها الولد العاصي ارايت ما سببت لي من الضعف والحزن وكدت اليوم توقع علينا مصيبة ليس اعظم منها طالما اوصيتك ان لا تلعب عند البئر فكان هذا جزاء عصيانك. غير ان الله نظر الينا بعين الرافة وارسل اليك هذا الملاك حتى خلصت. واين هي هذه الفتاة الكريمة النفس بادري يا تقلا وادعيها اليَّ في الحال لاشكرها على معروفها الجليل

فاسرعت ودعت بها وحالما دخلت غرفة الاميرة وقفت لها وقبلتها غير مبالية بما هي فيهِ من سمو المنزلة بالنسبة الى بنت فحام فقيرة وقالت لها يا ابنتي العزيزة قد جبرت قلبي اليوم بجميلك الذي لا يكافأ فاشكر صلاح قلبك وشجاعتك التي لا نظير لها بين امثالك وحيث خلصت ولدي من الهلاك احب ان اكون لك بمثابة والدة فتلزمين القصر من هذه الساعة وتعيشين عندي

سعيدة

ثم التفتت الى نفلا وقالت واما انت ايتهـا الطائشة فحيث اخللت بواجباتك فلست اطيق بقاءك في منزلي بعد الآن . فصارت المسكينة تنتحب وجثت على ركبتيها وقالت لها يامولاتي تعلمين اني فتاة يتيمة فقيرة فكيف اكون اذا اخرجتني من خدمتك تكرمي بالصفح عني هذه المرة واكون مواظبة على مصلحتي ساهرة الليل والنهار فقالت لها كم مرة وعدتني هذا الوعد وكذبت فلا يرجى منك صلاح حال

فتقدمت وردة وقالت لها ايتها السيدة الطيبة الاصل انعمي عليَّ بقبول شفاعتي فيها ان احببت مكافأتي على اني لست استحق جزاء لعمل مفروض على كل انسان . نعم ان نفلا غلطت غلطاً فاحشاً لكن جلَّ من لا يسهو والعفو من شيم الكرام فلا تقسي قلبك عليها وانت ترين دموعها السخية وتوسلاتها المؤثرة فارثي لحالها كما رثى الله لحالك وخلص ولدك باجتهادي واجتهادها معاً فانهـا ما قصرت المسكينة في العمل وكادت تموت كمداً . واما انا فلست اقبل يا مولاتي ان آخذ مكانها من الخدمة لايطاوعني ضميري ان انال نعيماً تحرمهُ صبية يتيمة فقيرة نظيري

فنظرت اليها الاميرة متعجبة من لطف كلامها ورقة عواطفها

فقالت لها لا اعرف ايُّ مزيتيك افضل اشجاعتك ام شرف نفسك فاكراماً لخاطرك لا اطرد نقلاً لكن لا اريد ان تفارقيني كوني عندي نظير صديقة او كبرى اولادي . وحينما يعود زوجي اخبره بما جرى فلا اشك انهُ يكافئك احسن المكافاة لانك على ما يخال لي لم تولدي لتكوني خادمة

ففكرت وردة في ذاتها قائلة كنت افضل عشرة هذه الاميرة الكريمة لكن من اين يبقى لي الحظ ان ارى والدي واقوم بخدمته وتسليتهِ . ثم قالت لها ليس كرامة الانسان بشرف مصلحتهِ بل بصلاح اعمالهِ . وانا ارى نفسي سعيدة في منزلتي الحقيرة لاني اجد فرصاً مناسبة لعمل الخير افتقد المسجونين كل يوم واقدم لهم لوازمهم فاذا انقطعت عنهم يذوقون البلاء فكيف يسوغ لي ان اتركهم . فانعمي عليَّ يا مولاتي بان ابقى في عملي

فقالت لها الاميرة ايتها الفتاة البديعة الخصال قد زدتني عجباً على عجب غير اني لا بد ان احسن جزاءك فقولي لي ما تريدين اطلبي مهما خطر لك على شرط ان لا يكون قضاؤهُ مستحيلاً لان المثل يقول اذا اردت ان تطاع فسل ما يستطاع

فاجابت وردة وهي مسرورة الفؤاد من رحمة الله والتفاتهِ الخاص اليها وقالت اقبل يا سيدتي فضلك هذا واتكل بعد الله على

وعدك لكن امهليني ريثما افتكر بما يوافقني عسى الله ان يعطفك عليَّ ويقدرك على عمل يكون به نعيم حياتي . والآن ارجو من كرم اخلاقك ان تسمحي لي بالعود الى بنت مولاتي لانها مريضة وليس عندها من يعولها الآن غيري . وللوقت خرجت من القصر وعادت الى مكانها

وبعد ما خرجت صارت الاميرة تتأمل في حال وردة وتعجب من شهامتها وطهارة قلبها . وكانت الاميرة من اعقل النساء واشرفهنَّ نفساً ومال قلبها الى وردة ميلاً شديداً غير انها دهشت من تصرفها وقالت من اين تعلمت هذه الفتاة ان تظهر هذه الافكار الشريفة وهذا المقدار من كرامة الاخلاق واين تربت على هذه اللياقة والحشمة وهي تدَّعي انها بنت فحام . فانا لا اعتقد ان هذا نسبها . وما سبب تفضيلها خدمة المسجونين والبوابة على المنزلة التي عرضتها عليها . لابد ان يكون لها شان غريب فيجب ان ابحث عن هذا السرّ المنطوي عليه سلوكها





الفصل الحادي عشر

جزاء الاحسان

في ذلك اليوم بعينهِ أمرت الاميرة قهرمان القصر ان يتجسس اعمال وردة ويراقب كل حركاتها ويخبرها الحقيقة بالتفصيل. وبعد يومين اتى واخبرها ان وردة تدخل سجن الامير عزيز ليلاً وتمكث عندهُ ساعتين واكثر وان الحديث الذي يدور بينهما لايسمعهُ لكونهِ اصمَّ لكن يخشى ان يكون مبنيًّا على دسيسة او حيلة ينجو بها بواسطتها.

فتعجبت الاميرة من هذا الامر وداخلها بعض الريب وعزمت ان تذهب بنفسها وتقف على الباب لتسمع كلامهما. ومع ذلك لم تظهر اقلَّ تغيرٍ على وردة حتى تقف على الحقيقة

ففي ذات ليلة اتى القهرمان واخبرها ان وردة عند عزيز فبادرت الى ما عزمت عليهِ وقالت في نفسها نعم ان الوقوف على الابواب لسمع كلام الناس من اقبح الخصال المذمومة لانهُ اشبه بالسرقة والخيانة لكن الضرورة احوجتني لاني اهتم بصالح

بيني وقد اوصاني بعلي ان اشدد في الاحتراس وفضلاً عن ذلك احب ان اراعي صالح هذه الفتاة لعل مكروهاً يصيبها اذا شعر زوجي بعملها

فلما وقفت على الباب رات فيهِ ثقباً فوضعت عينها فابصرت الامير وابنتهُ وصارت تسمع ما يقولان فدار بينهما الحديث الاتي

قال الامير ما اطيب هذه الدراقنات فهي اشبه بالتي تحملها الشجرة التي ربيتها في جنينتنا

وقالت وردة. آه ياليتني استطيع ان اجني منها حتى الآن واقدمها لك حسب العاده

— يا ابنتي العزيزة اشكري الله حيث انعم علينا بهذه فبها الكفاية الان واشكري فضل هذه السيدة الكريمة لانها اعطتك ثلاثاً منها . ويظهر انها ترأف بكِ

— نعم يا ابي رافتها بي عظيمة ولهذا السبب كان في عزمي ان اخبرها اني ابنتك ولا اخشى مطلقاً ان تبيح هذا السرّ وقد يمكن ان تتوسط مسألتك مع الامير وتخلصك من هذا السجن اكراماً لي

— لا اظن انها تنجح بهذا السعي لان الامير يمقتني مقتاً شديداً . نعم ان هذه السيدة الفاضلة رقيقة القلب كريمة الاخلاق لكن الامير جابراً شامخ الانف قاسي الطباع متصلّب في رايهِ

— اتتوهم انهُ يبقيك في السجن اذا عرف اني انقذت ابنهُ من

الهلاك ورای دموعي تنحدر وانا اتوسل اليهِ جاثية امامهُ

—لا تتوهمي انهُ يرقُّ لك فاني اعرفهُ حق المعرفة فاذا نظر اليك بعين اللطف فانهُ لا يزال يمقتني و يضطهدني

—واذا عرف انك وانت في سجنهِ تسعى في منفعتهِ وقد علمتني ان ابذل جهدي في ما بهِ مصلحة عائلتهِ واني لولا ارشاداتك وحسن تعليمك لما عرَّضت نفسي للهلاك لاجل نجاة ولده . افتظن انهُ يبقى مصرًّا على عنادهِ

—لا اعتقد ياولدي ما تعتقدين لان قلبهُ لا يلين . اقسى من الحديد . ويجب مع ذلك ان نصبر الى وقت حضورهِ . ولو ارادت الاميرة الآن اطلاق سبيلي بدون مشورتهِ او على الاقل اعطائي حرية الجولان في الحديقة لما قبلت خوفًا من عنف اخلاقهِ فاخاف ان يغضب عليها و يهينها فنكون قد كافأْنا جميلها بضدهِ فاحفظي هذا السرَّ الآن مكتومًا اذ لا فائدة من اطلاعها عليهِ على كلتا الحالتين . ونحن نلقي اتكالنا على الله وهو يدبرٌ بحكمتهِ وحسب مشيئتهِ

فلما سمعت الاميرة هذا الحديث اكتفت بهِ لمعرفة حقيقة باطنها فعادت الى مقصورتها وهي تقول في نفسها . اذن هذه الفتاة سيدة شريفة ولكي تتقرب من سجن ابيها اتخذت هذه المهنة الشاقة

الدنية ولبست هذا اللبس الحقير . والثمار التي اعطيتها اياها حفظتها له . فلاجلهِ تحمل البقاء في هذا المركز الزري ومع انهُ في سجننا اقدمت على تخليص ولدنا من الهلاك طبقاً لارشاده ومواعظهِ

ما اشرف هذا الرجل واطهر قلب هذه الفتاة . فكيف اصبر بعد الآن على ابقائهِ اسير الاحزان يجب ان ابذل وسعي لاطلاق سبيلهِ ورد قصره واملاكهِ عليهِ باقرب وقت . ولا بد ان الين قلب زوجي واقنعهُ بوجوب ذلك

وثاني يوم دعت بوردة وقالت لها قد عرفت شفقتك على اسيرنا الامير عزيز وسررت برقة فوادك لكن يدك قاصرة عن كل ما يلزم لاعانة هذا الامير فالحقّ عليك ان تاتي كل يوم وتاخذي له كل ما يلزم من اطايب الاطعمة واجود الخمور

وصارت هي تعطي وردة بيدها ما يخطر على بالها مما يسرّ الامير ويلذهُ وبالغت في ملاطفتها وكانت اكثر الايام تاتي بيت امراة البواب هي واولادها لزيارة وردة وتدعوها احياناً كثيرة ان تاتي هي واولاد البواب الى القصر وتسلي اولادها . فافتخرت امراة البواب بهذه الكرامة وارتفعت عندها منزلة وردة

ولم تمض ايام كثيرة حتى عاد الامير جابر وقد شفي من جراحهِ ومعهُ جماعة من الامراء والفرسان اصدقائهِ . وبعد الغداء جلسوا

جميعهم والاميرة واولادها ايضًا في القاعة الكبرى . وكان جابر ينظر
الى ولده نظر الاعجاب لانهُ كبر وتحسن . فاستغنمت الاميرة
تلك الفرصة واخذت تقص عليهِ حادثة وقوعهِ في البئر وكيفية
خلاصهِ على يد وردة . فارتجف بدنهُ عند هذا الخبر وقال ويلاه
ما كان اعظم هذه المصيبة لو حلَّت . ثم قامت الاميرة واحضرت
الحلة التي كان الولد لابسها وارتهُ الموضع الذي كانت بهِ معلقة
بالكلاَّب فاقشعرَّ جسم جابر وقال ما اعجب هذه الحادثة وما اغرب
طريقة نجاتهِ لو تعوقت تلك الفتاة الباسلة دقيقة واحدة لقطع
الكلاَّب هذه الفضلة الباقية من الخرق وذهب الولد . فما اعظم
شجاعتها واصدق خدمتها

ثم قال للاميرة وعلى كل حال اعتقد انك احسنت مكافأتها
قالت لا بل ابقيت لك انت هذا الحظ . فان المخاطر التي ركبتها في
نزولها بالدلو الى جوف البئر ثم في كيفية تسليم الولد الى حاضنتهِ على
فوهة البئر وما تخلل ذلك من الاهوال مما ترتعد منهُ فرائص
الجبابرة . فكيف يمكن ان قبضة من الذهب تكون كافية لجزاء مثل
هذا العمل العظيم . وقد وعدتها بالجزاء الذي تستحقهُ وتراه اثمن
من الذهب والجواهر وارجو ان لا يخيب فيك ظني . فتاثر جابر
من هذه الحادثة تاثرًا شديدًا وصاح بالخدم ان يدعوا وردة في

الحال ليراها و يشكر صنيعها . وبعد هنيهة دخلت تلك الفتاة
بهيئة الوقار والانس وحيَّت الامير وجماعتهُ تحية الاحترام . فطفح
السرور على قلب جابر من حالتها ونهض لها على الاقدام وقال
هنيئًا لك ايتها الفتاة هنيئًا لك على ما عندك من البسالة والحمية
ورقة القلب فبماذا اكافئك على تخليص حياة ولدي . سلي حوائجك
فاني اقضيها ولو كانت قصرًا من قصوري سلي في الحال لا تخافي
الفشل فاني اقسم لك بشرفي ان طلبتك تستجاب

فاجابت وردة وقالت بشهامة ايها الامير الجليل لانك
اقسمت بشرفك بحضرة هولاء السادة الكرام فاني اسألك نعمة
واحدة ولا اخشى الخيبة . ولست اسالك اكثر من الانصاف فان
حسن بعينيك فاطلق سبيل والدي وردَّ عليهِ ما سلبتهُ اياه .
فتعجب جابر من هذا الطلب وقال ما الذي سلبتهُ . من انتِ ومن
ابوكِ قالت انا وردة الطنبورية وابي الامير عزيز اسيرك . فذهل
الامير مما سمع واخذتهُ الجدة وبهت الجماعة الذين عندهُ متحيرين
وانعقدت السنة الجميع واثرت كرامة اخلاق وردة في قلب جابر
تاثيرًا عجيبًا وتجدد فيهِ الحقد القديم واكفهرَّ وقال في نفسهِ كيف
وقع لي ان احمل جميل بنت عدوي الاكبر . فلم ينطق بكلمة لا هو
ولا احد من جماعتهِ . وحينئذٍ اطلقت امراتهُ لسانها وقالت

اعلموا ايها السادة اني عرفت منذ ايام قليلة ان وردة بنت الامير عزيز فحبًا بهِ ورجاء ان تراه في سجنهِ وتسليةً في احزانهِ وتشاطره طعامها لبست هذا اللبس الزري ودخلت في خدمة بوَّابنا. ولاجلهِ احتملت بصبر جميل شراسة اخلاق امراة البواب التي تابَى احقر بنات البلدة ان تعاشرها يومًا واحدًا. وما نتجت هذه البسالة عند وردة الّا من شدة حبها لوالدها واكرامهِ المفروض على الاتقياء والاشقياء فشفيعها عندنا ياسيدي وزوجي العزيز الشكر والمروَّة

فقال احد الاصدقاء الاخصاء حقًّا ان عملهُ هذه الفتاة حبًّا بابيها اوجب للثناء من الذي عملتهُ لمصلحتكم. وما احتملتهُ من الشقاء والعنف وشظف العيش والاساءة والاهانة والاشغال المضنية لاجل تعزية ابيها برهان قاطع على شهامتهـا وعزة نفسها وكرامة اخلاقها. فلو كنت في مكانك ياصاحبي لما ترددت دقيقة عن اجابة طلبها

وقال صديق آخر ما اظن ان عزيزًا عدوٌّ لك ايها الامير والّا سهل عليهِ في غيابك ومفاتيح السجن بيد ابنتهِ ان يضرم النار في جوانب قصرك ويفر ليلًا والناس ملتهون بالحريق. فلا يجوز ان نحمل عليهِ حقدًا

وبقي جابر ساكتًا لايتحرك جامد النظر كانهُ لايسمع شيئًا مما

قيل لهُ . ونهضت وردة وتنهدت ورفعت عينيهـــا الى العلاء ودموعها تجري

فقالت الاميرة يا زوجي العزيز لا اقول الاَّ كلمة واحدة فاسمعها اكراماً لخاطري لو كان عزيز يضمر لك عدواناً لما كنت الومك انا امراتك واعزّ اصدقائك على التشديد عليهِ . وكيف يسوغ لي ان احضك على انقاذ عدوك من قبضتك . والآن ابرهن لك بوضوح سلامة نيتهِ من جهتك . فانا وحدي بذاتي كشفت السرّ وعرفت ان وردة ابنتهُ وسمعت منها كلاماً يدل على صفاء نية وخلو قلبهِ من كل ضغينة بل تحققت انهُ يسعى في مكافاة الشر بالخير ويوصي ابنتهُ ان تجتهد في كل ما بهِ مصلحتنا ولولا ارشاده هذا لهـا لما اقتحمت الاهوال لانقاذ حياة ولدنا . فكيف يجوز لك ان تبغضهُ وتضطهدهُ . أتتردد حتى الآن يا جابر يا عزيزي . وردة ما ترددت دقيقة عن تخليص ابنك فلا تدعها تخرج خائبة . يا اله السماء ليّن قلبهُ بنعمتك

فقال الامير بصوت ضعيف رددت الى وردة املاكها واما ابوها فيبقى اسيراً

فحينئذٍ صاحت الاميرة بولدها وهي تذرف الدموع وقالت تعال ياولدي تعال واجثُ على ركبتيك امام ابيك وارفع اليهِ

يديك الصغيرتين وقل لهُ الكلام الذي امليهِ عليك لعل قلبهُ يعطف بتوسلاتك البنوية . فاتى الولد وصار يبكي لبكاء امهِ ووردة لانهُ كان يحبها حباً شديداً وفعل ما قالتهُ امهُ وقال لابيهِ يا ابي لا تكن قاسياً الى هذا الحد اشفق على ذل هذه الفتاة التقية التي انتشلتني من البئر وكما خلصت ابنك خلص انت اباها . يا ابي العزيز اتوسل ان لا تحوّل عني وجهك انظر اليّ انظر انا ابنك الذي تحبهُ ويحبك اشد المحبة فلولا همة وردة لما كنت ترى الآن هاتين اليدين الممدودتين اليك . وكنت قد بليت منذ ايام في قعر تلك البئر الهائلة ومن اين كنت تسمع هذا الصوت الحلو في اذنيك

فلما سمع جابر هذا الكلام الذي يليّن صمّ الصخور جرت دموعهُ على خديهِ وقال كفى كفى يا ولدي فقد طفح الكيل ثم قال لوردة اطلقت اباك ايتها الفتاة المحبوبة ورددت اليهِ قصره وسائر مقتنياتهِ ما كنت اعرفهُ حق المعرفة لكن طيب الثمر دليل على طيب الشجر ولا تنبت الفروع الا على طبيعة الاصول

فنهضت الاميرة وقالت اشكرك يا الله لانك عطفت فوادهُ ثم القت نفسها هي وابنها على عنق زوجها . واما وردة فكادت نفسها تفيض من شدة فرحها

وقال احد الصديقين المذكورين الآن ايها الامير سلكت مسلك الاشراف وارتفعت منزلتك عندي درجات . وقال الاخر هذا اجلُّ عمل عملتهُ فأولى بالرجل ان يكون عادلاً من ان يكون بطلاً . واجلُّ ظفر يظفرهُ الهمام تغلبهُ على طبعهِ واستئصال شوك الحقد من قلبهِ

فصفق جميع الحاضرين طرباً لهذه الكرامة وصاحوا بلسان واحد عاش الامير جابر جابر عثرات الكرام . عاشت الاميرة الفاضلة والامير الصغير اللطيف . عاش الامير عزيز وابنتهُ وردة الطنبورية

الفصل الثاني عشر

اطلاق الامير عزيز

لما دخلت الرقة قلب جابر على اثر تلك الحادثة انقلبت كل اطوارهِ كانهُ خلق خلقة جديدة فبعد ان كان عبوساً صار بشوشاً . وبعد ان كان مخيف الهيئة صار طلق الوجه حسن الطلعة . وبعد

ذلك الجفاء صار رضيَّ الاخلاق حليمًا . وبعد كبريائهِ وعنفوانهِ صار وديعًا انيسًا . ولم يخف تغير طباعهِ على احد حتى ولده الصغير فانهُ قال لهُ يا ابي العزيز الآن صارت هيئتك محبوبة نظير امي ووردة وافرح اذا رايتك وزادت محبتك عندي

وتقدمت اليهِ وردة واجزلت لهُ الشكر بعبارات بديعة غاية في الرقة فقال لها ايتها الفتاة العزيزة افحمتني بسلاسة كلامك ولطف طباعك حتى كنت احسب نفسي من اخشن البرابرة لو امتنعت عن اجابة طلبك فتعالي معي نذهب الى ابيك فما اطيق ان يبقى دقيقة في السجن وانت التي سعيت بخلاصهِ فينبغي ان تكوني اول من يحمل اليهِ هذه البشارة واطلب اليك ان تسترضيهِ عني وان يزيل من افكارهِ كل خاطر مريب من جهتي و يعفو عما مضى من اساءتي فقالت الاميرة اصبري يا وردة فلي معك كلام . ومضت بها الى احدى المقاصير حيث اعدَّت لها حلة لائقة بمقامها . فازالت عن يديها ووجهها تلك الصبغة السمراء ولبست الحلة فصارت ابهى من البدر ليلة تمامهِ. ثم اتت الاميرة بعلبة حلي وقالت لها هوذا يا وردة العلبة التي فيها جواهر والدتك قدَّمها لي زوجي بعد ان سلبها لكني علمت انك باقية في قيد الحياة فاضمرت ان اردها اليك ولم افتحها فافتحيها بيدك وتحلي بما فيها

فشكرت وردة فضلها وفتحت العلبة فذكرت والدتها وفاضت عيناها بالدموع وقالت وا اسفاه على الانسان في هذه الدنيا تذهب العين ويبقى الاثر هذه الجواهر باقية في لمعانها ورونقها والتي كانت تلبسها صارت الآن ترابًا . فماذا كان يُعدُّ الانسان اشرف خلائق الله لو لم يكن فيهِ هذا الجوهر الذي يفوق انفَس الجواهر ويخلد نقيًا سليمًا من شوائب الزمان

فقالت صدقت ان الزمان يبيد كل شيء حتى هذه الحجارة الالماسية الشديدة الصلابة واما الفضائل فلا تفنى وتكلل صاحبها باكليل مجد ابدي . وبعد ان انتهت وردة من اللبس والتحلي بالجواهر اخذت الاميرة يدها ومضت بها الى سجن والدها . فلما وصلت امام الباب اشتد خفقان قلبها من كثرة فرحها ودفعت الباب بيدها فرأت اباها واقفًا بملابسهِ الرسمية التي كان يلبسها في ايام عزهِ وعلى جانبيهِ صاحبا جابر . وكانت الاميرة قد اوصت زوجها ان يقابل الامير عزيز ابنتهُ بتلك الملابس

فتقدم عزيز الى وردة واعتنقها وقال لها يا ابنتي العزيزة قد ظفرتِ ظفرًا ليس اعظم منهُ . لم يكن شيء في الدنيا يقدر ان يلين قلب الامير جابر واما فضائلك ففعلت فعلاً طلسميًا وغيَّرتهُ تغيرًا عجيبًا فصار لي صديقًا صادق الوداد

وحينئذٍ قالت وردة لابيها ما كلفها بهِ الامير جابر من جهة طلب الصفح عن اساءتهِ فقال لها تعلمين يا ابنتي اني قد صفحت من مدة طويلة وليغفر الله لي ولهُ . واذا بالباب قد انفتح ودخل جابر وامرائهُ وابنهُ . فتعانق الرجلان وتحالفا على خلوص النوايا وذاقا لذة المصالحة الحقيقية وسلامة الصداقة

وجعل الامير عزيز يتامل في محاسن ذلك الولد اللطيف الذي خلصتهُ وردة من البئر واخذهُ بين ذراعيهِ وقبلهُ وباركهُ وقال جعلك الله ايها الولد المحبوب قرة عين ابيك وامك ومن خيار عبادهِ الصالحين فقالت الاميرة اني اسال الله ايها الامير الشريف ان يلقي في قلبهِ محبتنا كما تحبك ابنتك الفاضلة فنكون بهِ اسعد البشر

وختم ذلك النهار السعيد بوليمة حافلة اقامها جابر واجلس عزيزًا ووردة في اشرف المحلات وقال ما الذَّ الصداقة الصحيحة وقد ظهر لي العدوان الآن كانهُ وحش من وحوش جهنم والصداقة الخالصة كملاك من السماء . وبعد انتهاء الغداء شربوا الخمر المعتقة ورفع جابر بيده الكاس الاخيرة وقال هذا على سرّ العائلة الطنبورية واسال الله ان يقدر كل الآباء والامهات على تربية اولادهم كما تربت السيدة وردة وان يكونوا قرة عيونهم وفخر

حياتهم كما صارت وردة فخر ابيها وركن افراحهِ الدنيوية

الفصل الثالث عشر

وليمة الامير عزيز

وثاني يوم اراد عزيز الرحيل الى قصره فامسكهُ جابر وقال لهُ لا تبرح قبل ان تصلح شؤُون القصر فتجدهُ كما فارقتهُ وصار يفرجهُ على ما في قصره من التحف والآثار وكانت الاميرة ايضاً تجول مع وردة وتريها داخلية المقاصير وما فيها

ولما كانت ساعة الانصراف ارادت وردة ان تزور بيت البواب وتودّع مولاتها واولادها وصحبها عزيز وجابر وامرأتهُ فحالما راى البواب وردة تعجب من حالها ومن الانقلاب الغريب الذي حدث وصار يبالغ في ملاطفتها واستعطافها والاعتذار لها عن خشونة امراتهِ . وكان ولدا البواب واقفين على انفراد يخشيان او يستحيان ان يتقدما امام الامراء ووردة فدنت منهما وردة ولاطفتهما فتشجعا فقالت البنت ما احسن لبسك اليوم ياسيدة وردة وقد رايت فيك كل شيء جميلاً وجديداً حتى وجهك وقال الصبي ما احسن

ما صرت اليوواني اسرّ جدًّا اذا بقيت خادمتنا كالسابق فلا يكون احسن منك. فضحك الحاضرون من سذاجة الولد وسالتهُ وردة عن امهِ فقال حينما علمت بقدومك هربت واختبأت

وذلك لان هذا المراة خجلت جدًا من الحضور امام وردة وابيها وقد علمت ان خادمتها بنت امير شريف وبكتها ضميرها على معاملتها السابقة فارتبكت في امرها وما قر لها قرار. فاستدعتها وردة فحضرت وقالت ياليتني وجدت مغارة بعيدة استتر بها خجلاً منكِ فارجو ان تصفحي عن خشونتي وما كنت عارفة انك بنت امير ومن اين لي ان اعرف هذا ولو عرفت اقل شيء من شرفك وغناكِ لاحسنت اليك كل الاحسان

فقالت لها الاميرة اما تعلمين ياغبية ان الناس كلهم جبلة واحدة الغني والفقير والشريف والحقير كلهم ابناء آدم وحوّاء فيجب الاحترام والاكرام لكل من كان صاحب ادب وحشمة من ايّ رتبة كان. وقد خجلتِ من خادمتك لانك رايتها الآن اميرة مع ان الواجب كان ان تخجلي منها لخشونتكِ ولو بقيت خادمتك الفقيرة فالله يامرنا بالملاطفة والموانسة للمساكين لانهم اولادهُ نظيرنا نحن. فازداد خجل المراة من هذا التوبيخ وعادت فطلبت العفو من وردة فقالت انا اعفو عنك وابين ملائحك لدى سيديك لكن لايجوز

ان اضرب صفحاً عما بك من سوء الخلق فانا لا انكر كونك امراة عاقلة وام فاضلة وصاحبة تدبير في خدمتك وحسنة القيام على مصالح سيدك . تفعلين الخير للفقراء وتحسنين التودد الى الناس لكنّ بك خلقاً ذميماً ينفي منك كل هذه الخصال الحميدة كلما بدا فانك اذا لم تطاعي في كل حال تستشيطين غضباً ولا تملكين نفسك في ثورتها فتقولين كلاماً لا يحتمل وتفعلين ما لا يطاق وبهذا السبب اشتهرت برداءة الاخلاق ونفر منك الخدم وقيل عنك انك حمقاء .ولستِ كذلك. فاذا اصلحت هذا الخطا كنت من احسن النساء .فاعمدي ذلك من الآن وتعهدي امام الله وامام مولاك ومولاتك انك تذكرين هذه النصيحة صباحاً ومساء . ولا تضجري اذا لم تنجحي في اول الامر فالشجرة الكبيرة لا تقطع من اول ضربة فاس لكن بالمواظبة والثبات يقدر الانسان ان يملك طبعهُ . واذا دخلت منزلك خادمة جديدة فلا تطلبي منها ان تعرف كل شيء من اول وهلة بل يجب ان تعلميها وتدربيها الى ان تصير قادرة على اجابة كل ما تطلبين وارفقي بها اذا اخطأت عملاً وخذي معها باللين والصبر فتحبك وتحترمك وتجتهد في كل ما يرضيك وهكذا يعرف الناس حسن اخلاقك وينفون عنك التهمة التي يرمونك بها . واني ما قلت لك هذا القول الاّ حبّاً

بمصلحتك فاطبعي نصيحتي هذه على صفحات قلبك

فلما سمع جابر هذه الموعظة اعجب بها وقال هذه هي الحكمة وصراحة النية وكثير من الناس يستفيد من هذه النصائح ومن جملتهم انا لاني هكذا كنت وقد استفدت نفي هذه الخصلة الذميمة مني وكان ابي كثيرًا ما ينبهني على هذا الخطا في صغري غير انهُ كان يختصر ارشادهُ بعبارتين وهما قول المثل « من اطاع غضبهُ اضاع ادبهُ »

وبعد ايام خرج جابر وامراتهُ وخاصة جنوده وحشمِهِ في صحبة عزيز وودة يرافقونهما الى قصرها . وكان خبر هذه الحادثة قد شاع في كل البلاد وصار الناس يخرجون للقاء هذا الجمع السعيد افواجًا افواجًا من كل المنازل رجالاً ونساء واولادًا وهم فرحون جدًّا بما حصل من الصلح بين الاميرين ومشتاقون لمشاهدة تلك الفتاة البديعة الخصال التي كانت قدوة في فضلها وطهارتها وحبها لوالدها

ولما دخلوا الاراضي التي تخص الامير عزيزًا لم يجدوا في الطرقات احدًا فتعجب عزيز لكن حالما دخلوا سور قصره وجده غاصًا بالجماهير فضجوا جميعهم بالافراح والتهاني وقام بشارة الحطاب وتكلم عن لسان الرجال وتكلمت امراتهُ عن لسان النساء

بالترحاب والتهنئة

وكان رؤساء الفرسان ونساؤهم واولادهم مجتمعين على ابواب القصر بالملابس الفاخرة وامامهم انيسة ابنة الفحام على يديها طبق من القطيفة عليهِ مفاتيح القصر فقالت لوردة ايتها السيدة الشريفة الفاضلة انت كنت السبب في اطلاق الحرية لابيك وردّ قصرهِ اليهِ فبواجب الاستحقاق تسلمين اليهِ مفاتيح القصر بيدك الكريمة ففعلت وردة ذلك وعلت ضجة الناس بالتهليل وصدحت الموسيقى بانغام التهاني وكان السرور طافحًا على الوجوه وكان الناس كلهم يصيحون بصوت واحد « عاش مولانا عزيز ومولاتنا وردة »

وحينئذٍ نصبت موائد الطعام وتهيأ الجمهور لقبول دعوة الوليمة ولم يصحب عزيز اصحابهُ الامراء والفرسان الى القاعات الداخلية بل اختار ان يكون بين جمهور اتباعهِ الامناء وكان معظم اهتمامهِ لقاء بشارة وامراتهِ . فلما لقيهما قال لبشارة انت خادمي الامين وصاحبي القديم ولك الفضل العظيم بقبولك ابنتي في منزلك مدة اسري وما فعلت معها امراتك الفاضلة وابنتك اللطيفة من الاحسان مما لا يكافأ فيكون مقامكم مذ الآن في قصري لا تبارحونهُ تتسلون ببعض اعمال خفيفة افرضها على كل

منكم وتعيشون رغداً فرحين آمنين فتكون انت رئيس سيّاس خيلي وامراتك قهرمانة قصري واما ابنتك فحيث انها لازمت صحبة ابنتي في ايام ويلها واحزانها فمن اللزوم ان تبقى في ايام عزها وافراحها ملازمة لها نظير اخت ونديمة لاني لا اجد البق منها لصحبتها في نعيمها كما كانت صاحبتها في بؤسها

ثم صار يكلم الناس باحسن الكلام وألينه ويعدهم المواعيد الحسنة · وكانت خيراتهُ تفيض على الجميع قبل ان أُسِر . فمنذ حصلت لهُ تلك النكبة انقطعت عنهم الصدقات السرّية فوعدهم ان يعيدها عليهم اكثر مما كانت فضجوا جميعهم داعين لهُ بطول العمر وهناء العيش · وتاثر الامير جابر من ذلك المشهد البهج وقال الآن علمت ان السيد المحبوب افضل من المرهوب فقال عزيز نعم لكنَّ الافضل من يكون محبوباً من الاخيار مرهوباً عند الاشرار

الفصل الرابع عشر

اكرام الفضيلة

ومن ذلك الوقت تواصلت الزيارات بين الامير جابر وامراتهِ والامير عزيز وابنتهِ وكان جابر يستشير عزيزًا في كل المصالح المهمة ووردة تقتدي بالاميرة في كل اعمالها الصالحة . وبعد مدة قصيرة قلت زيارات جابر ثم انقطعت وما عاد يقابل عزيزًا اذا زارهُ ويلفق معاذير مختلفة . ثم في ذات يوم وصل بغتة الى قصر عزيز على فرس يسابق الطير وطلب الى الامير عزيز وابنتهِ ان يسيرا معهُ في الحال الى قصرهِ فاجابا . ولما وصلوا دخل بهما الدهليز المودي الى السجن الذي كان فيهِ عزيز وكانت الاميرة معهم . فقالت لها وردة عجبًا الى اين اتى بنا وما يريد ان يفعل بنا فقد ارتعدت فرائصي من تذكر هذه السجون

ثم التفت جابر الى عزيز وقال لهُ اتعرف هذا الباب قال نعم هو باب سجني فدفع جابر الباب . ويا للعجب اذا ذلك السجن المكدر

المظلم المخيف قد صار كنيسة مزينة نظيفة منارة بالمصابيح منظرها يشرح الصدر . فقال جابر قد علمت الآن ما السبب في قطع زياراتي فكان قصدي ان ابغتك هذه البغتة التي سررت بها وابتهجت وردة بعد ان ارتاعت . وكان هذا براي امراتي لانها لما رات في قصرك كنيسة جميلة ارادت ان يكون في قصرنا مثلها فما رايت انسب من هذا السجن لتبديل المكروه بالمحبوب ويبقى تذكارًا دائمًا لما جرى بيننا من الحوادث . فلا يسجن هنا احد منذ الآن بل يكون محل عبادة وشكر لله تعالى مقدر الامور ومغير القلوب لانه احيى انني على يد ابنتك ووطد المحبة بيني وبينك بعد البغضاء الشديدة . وغدًا نحتفل بتدشين هذا المعبد بحضوركما

وثاني يوم اجتمع في المعبد جميع الخواص والفرسان والقواد والمقدمين واعيان البلاد ليشهدوا حفلة التدشين وبعد انتهاء الصلاة دخلوا القصر وكانت قد اعدّت لهم وليمة من افخر ما يكون . وحالما جلسوا اذا بضجة عظيمة خارج القصر وصهيل خيل وقعقعة اسلحة فاسرعوا الى الشبابيك واذا بخادم دخل عليهم وقال مولانا الدوق وفرسانهُ فتحركوا لاستقبالهِ فدخل عليهم مسرعـــًا ووراءهُ الفرسان بابهى الملابس واثمن الاسلحة

فسلم الدوق على عزيز وقال لهُ ايها الامير اتيت لابشرك

بالصلح الذي عقدناهُ بانتصار ومجدوما اظهر جلالة الامبراطور من الرضى باقدام جنودك وشدة سروري ايضاً . فاتيت بهم البارحة وعلمت انك هنا فاسرعت بالمجيء ليكمل سروري بما كان بينك وبين الامير جابر من المسالمة. وانت ايها الامير قد اظهر الامبراطور عظيم سروره بالمسلك الصالح الذي سلكتهُ

فطرب جابر اشد الطرب لسرور الامبراطور والدوق من عملهِ

ثم التفت الدوق الى وردة وقال لها ايتها الاميرة الشريفة لكِ معي وديعة سامية خاصة اقدمها لك بعد الغداء اذا سمحت

وجلس الدوق في المحل الاول والاميرات عن يمينهِ ويسارهِ وكذلك الاميرة ووردة والباقون كلٌّ في مرتبتهِ وبعد ان اكلوا قليلاً قال الدوق قد بلغنا الخبر في معسكرنا عما جرى بين الامير جابر والامير عزيز لولاً من اسر الامير عزيز ثانياً بالوسائط التي قامت بها حضرة الاميرة لانشراح صدرها من عمل السيدة وردة حتى جرى الصلح السعيد غير اني اشتهي ان اقف على تفاصيل هذه القصة العجيبة

وصار يسأل الجماعة اسئلة مختلفة وهم يجيبونهُ بتفصيل عن كل ما جرى الآن عزيزاً ووردة لم يظهرا حقيقة ما فعل جابر من

الاعداء والجور وكما اكثر اعماله الفظة لكنهُ قام وتكلم بحرية ضمير
وبين الحقيقة كما كانت فسرَّ منهُ الدوق والحاضرون لانهُ اعترف
بخطاءِه جهارًا ومدح الدوق همة الاميرة واثنى اجزل الثناء على
بسالة وردة وحسن تصرفها الغريب وشكر ايضًا صبر الامير عزيز
وطهارة قلبهِ والامير جابرًا على ما ابدى من تغير الباطن وعلى
توطيد الصداقة بينهُ وبين عزيز

وبعد ما فرغوا من الطعام اشار الدوق الى وردة وقال .
لهذه السيدة الكريمة الفضل بهذا الحظ السعيد الذي نحن فيهِ
الآن فلولاها لكانت الحرب الآن على ساق وقدم لاننا ما كنا تركنا
عزيزًا في السجن وكنت قد عزمت ان آتي بعد عقد الصلح بعسكر
كثيف لحصر قصر الامير جابر وكانت الدماء قد جرت سيولاً
بيننا . فالعناية الالهية استخدمت فضيلة هذه الفتاة الشريفة
لمنع الحرب

فاحمرَّت وردة حياء وقالت ياسيدي ليس كل الفضل لي
بل القسم الاكبر منهُ للعصفور الذي وقع على الدلو فقصد الولد
امساكهُ وسقط في البئر وتعلقت ثيابهُ بالكلاَّب ولولا ذلك لما ظهر
فضلي ولا قدرت على تخليصهِ. والله تعالى هو الذي دبر هذا التدبير
بحكمتهِ حقنًا لدماء العباد

فقال عزيز الحق ما قالتهُ وردة فان اموراً كثيرة تجري في حياة البشر تظهر في ذاتها حقيرة فلا نكترث بها ولكنها تجلب حوادث عظيمة جديرة بالاعتبار. فلو لم يخرج الاولاد من القصر ليلعبوا في الروضة في صباح جميل ولو لم تغب الحاضنة في ذلك الوقت لما سقط الولد في البئر ولو كان خدم القصر جميعهم حاضرين لما خصصت وردة بهذا العمل المبرور الذي تغير بواسطتهِ قلب الامير جابر وامتنع سفك دماء الابطال وتخريب الديار. ومن يخطر ببالهِ ان اشتهاء نوع من الطعام يجلب هذه الحوادث العظيمة فصحن الفطر الذي اكلت منهُ وردة على مائدة بشارة هو الذي دعا الى مجيء وردة لتخدم امراة البواب وتجري عن يدها هذه الامور. ولولا ذلك لهلك الولد في البئر وبقيت انا في السجن وصار قصر الامير جابر خراباً وترملت النساء وتيتمت الاطفال فهذه عناية الله تظهر في الامور الحقيرة حتى نتم بها الامور الجليلة. فلهُ وحدهُ المجد والتسبيح والشكر

فصفق الجماعة استحساناً لهذه الملاحظة الدقيقة واخذ الدوق كاساً ونهض وقال اشرب على سرّ جلالة الامبراطور فنهض الجميع رجالاً ونساء واعادوا كلامهُ وشربوا. ثم التفت الدوق الى وردة وقال في هذه الفرصة المناسبة احب ان اقدم لك ما كلفت

بهِ من قبل جلالة الامبراطور فانهُ ابدى نحوك تعطفاتهِ الملوكية على اثر سرورهِ من الصلح لانك عملت عملاً عظيماً حقنت بهِ دماء الرعية ووطدت اركان الصداقة بين عدوَّين شديدين فاراد ان يكافيء فضيلتك بانعام خاص على مرأى ومسمع هولاء الاعيان

ثم امر احد اتباعهِ فاحضر رسالة مكتوبة في رقٍّ ناعم مزيَّن بالنقوش وملفوف بمخمل ارجواني وعليهِ الختم الامبراطوري وموضوع في علبة من العاج المنقوش. فقدمهُ الدوق لوردة قائلاً ايتها السيدة الموقرة من المعلوم ان والدك لاعقب لهُ سواك وان الميراث في شريعتنا لا يكون الا للذكور فكان الحق ان تكون تركتهُ بعده للدولة فلما بلغ الامبراطور ما فعلت من الشهامة التي حسبت خدمة جلى للدولة علم انك تستحقين اكرام عشرة ذكور فعقد مجلساً مولفاً من اركان الدولة وقرروا ان يكون ميراث ابيك لك وان الذي يقترن بك يكون منتسباً الى العائلة الطنبورية وبناء على ذلك انعم عليك بهذه البراءة الشاهانية عسى الله ان يخلد ذكرك الصالح في ذرية مديدة الاعوام محفوفة بالمجد والاكرام

فلما سمع عزيز ووردة هذا الكلام ما عادا يملكان دموعهما من شدة الفرح وانعقد لسانهما فلم يعرفا كيف يظهران تشكرهما من انعام الامبراطور. وحينئذٍ تقدم جماعة من اولاد الامراء لخطبة وردة

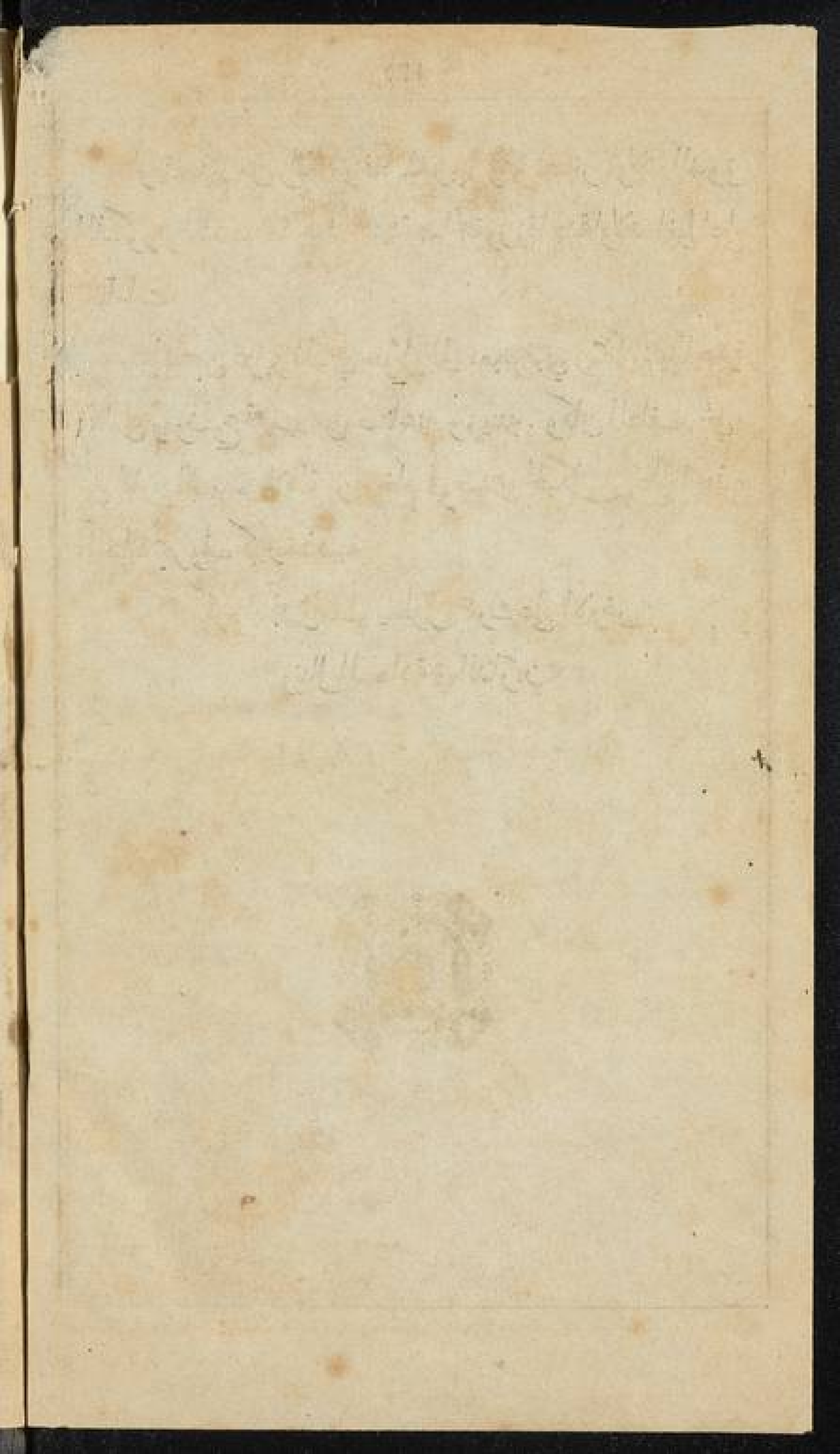
فاختارت منهم من رأتهُ موافقاً لمشربها وهو اصغر اولاد الدوق المذكور وعاشت معهُ عيشة هنيئة صالحة ورزقا علة اولاد بلغوا اعلى المقامات

واما سجن عزيز الذي حوّل الى معبد فبقي زمانًا مديدًا عبرة للناس وموضوع تعجب من صناعتهِ وزينتهِ. وكان الطف شيء من اثارهِ الجميلة بلاطة من رخام في صدر الهيكل عليها هذه الكتابة بحروف كبيرة ذهبية

«اكرم اباك وامك ليطول عمرك على الارض»

«وتنال السعادة في الدارين»





مَثَل

من اشبه اباه فما ظلم

هذا المَثَل تفهم منهُ خلاصة قصة وردة الطنبورية اللطيفة ومن جملة ما يقال في المعنى ايضاً قول العرب العَصَا من العُصَيَّة وقولهم ان هذا الشبل من ذاك الاسد وقولهم حسب الاصول تنبت الفروع وامثال ذلك كثيرة وكلها يراد بها ان حسن التربية يجلب سعادة الوالدين والاولاد كما حدث لوردة وابيها

من الضرورة ان كل والد يتامل في حالهِ مع اولادهِ ويعلم انهُ المدبّر الذي يهيئ بعض افراد الهيئة الاجتماعية للاعمال السياسية والادبية والدينية ونحو ذلك. فمن هؤلاء الافراد قيام الكون ونتائج اعمال البشر الخيرية والشريَّة

فحالما يولد للانسان ولد يجب ان يلتفت اول كل شيء الى كيفية تربيتهِ ويستعد لها لان الله اعطاه اياه ليجعلهُ من عبادهِ الصالحين وهو المتكفل بهِ حقاً وان كان يساعدهُ على تربيتهِ غيرهُ من الناس

واساس هذه التربية القدوة اي ان يكون تصرف الوالد بالطريقة التي يجب ان يسلكها ابنهُ فلا يليق بهِ ان يعمل عملاً وينهى ابنهُ عنهُ ولا ان يامر ابنهُ بعمل لا يحب هو ان يعملهُ

فمن الالتفات الى صحة التربية تكون بعض الامم دملة الادب متقدمة في سلم التمدن والنجاح و بعضها متاخرًا ادبيًا ومادّيًا ايضًا كما تنبت اعشاب البرية وتنمو وتذبل وتسقط بدون ان يكترث بها احد لكن اذا اخذت واحسن القيام على استنباتها نراها تحسنت وتكيفت على ما نحب مع تكرار المعاملة الحسنة

مَن من الناس يرى ابنهُ مريضًا او جريحًا ولا يبذل كل جهدهِ لمنع هذا الاذى عنهُ . من لا يبذل الدرهم والدينار عن طيب خاطر لكي يخرج الطبيب الابرة من رجل ولدهِ

على اننا نرى كثيرين من الآباء تغرز في نفوس ابنائهم إبر الشرّ وفساد الاخلاق فلا يلجأُون الى الطبيب الادبي او الديني ليصف لهم الدواء الموافق لسلامتهم. ومن لا يعترف ان الجرح الادبي او الديني اشد خطرًا باضعاف اضعاف من الجرح البدني . وسلامة النفس الزم بكثير من سلامة الجسد

ولماذا نشفق على ولدنا من الاهانة اذا كنا نعلم ان هذه الاهانة تكون لهُ كالداء المرّ الطعم لازالة الحمى القتالة . افما نعلم ان من احبّ ابنهُ ادّبهُ فالتاديب لا يحسب اهانة بل خلاصًا من الفساد وكما اننا نلوم الغير على اهمال تربية اولادهم كذلك يجب ان نلوم انفسنا على الاغضاء عن هفوات ابنائنا لان الهفوات تصير كبائر

فاللص لايبتدىء بسرقة الامتعة الكثيرة الثمن والقاتل لايبتدىء بقتل الرجل بل بقتل الحيوانات الاهلية لمجرد غضبهِ غالباً

ومن اضرّ الامور التي تفسد تربية الولد امران متناقضان حنوّ الام وشراسة الاب. فحنوّ الام ينمي في اخلاق الولد الشرور التي تكون في اول الامر خفيفة ثم تتعاظم بالتدريج. وشراسة الاب تضعف قلب الولد ونفسهُ وتنزل بهِ الى دركات الخمول والبلهَ

فالاعتدال من الطرفين اي الاخذ باللين تارة وبالشدة طوراً (وما المراد بالشدة القساوة ولا باللين التدليل) هو الذي وحدهُ يقوّم طريق الولد ويعلمهُ حسن السلوك وآداب الاخلاق وقد علمنا ذلك من كيفية تصرف ام وردة مع بنتها وهي صغيرة كما تقدم في اوائل هذه القصة وعلمنا ايضا اي سبيل سلك معها ابوها في اواخر القصة حتى كافأت الشرّ بالخير واشتهرت بحسن السلوك والفضل. وعلمنا ايضاً كيف ان تلك البوابة كانت شراسة اخلاقها تبعد عنها خدامها وكيف اشتهرت بين الناس بالحمق حتى اظهرت لها وردة بموعظتها النفيسة كيفية التصرف

هدانا الله جميعاً سواء السبيل

انتهى

